إبراهيم الحريري

الاغتيال

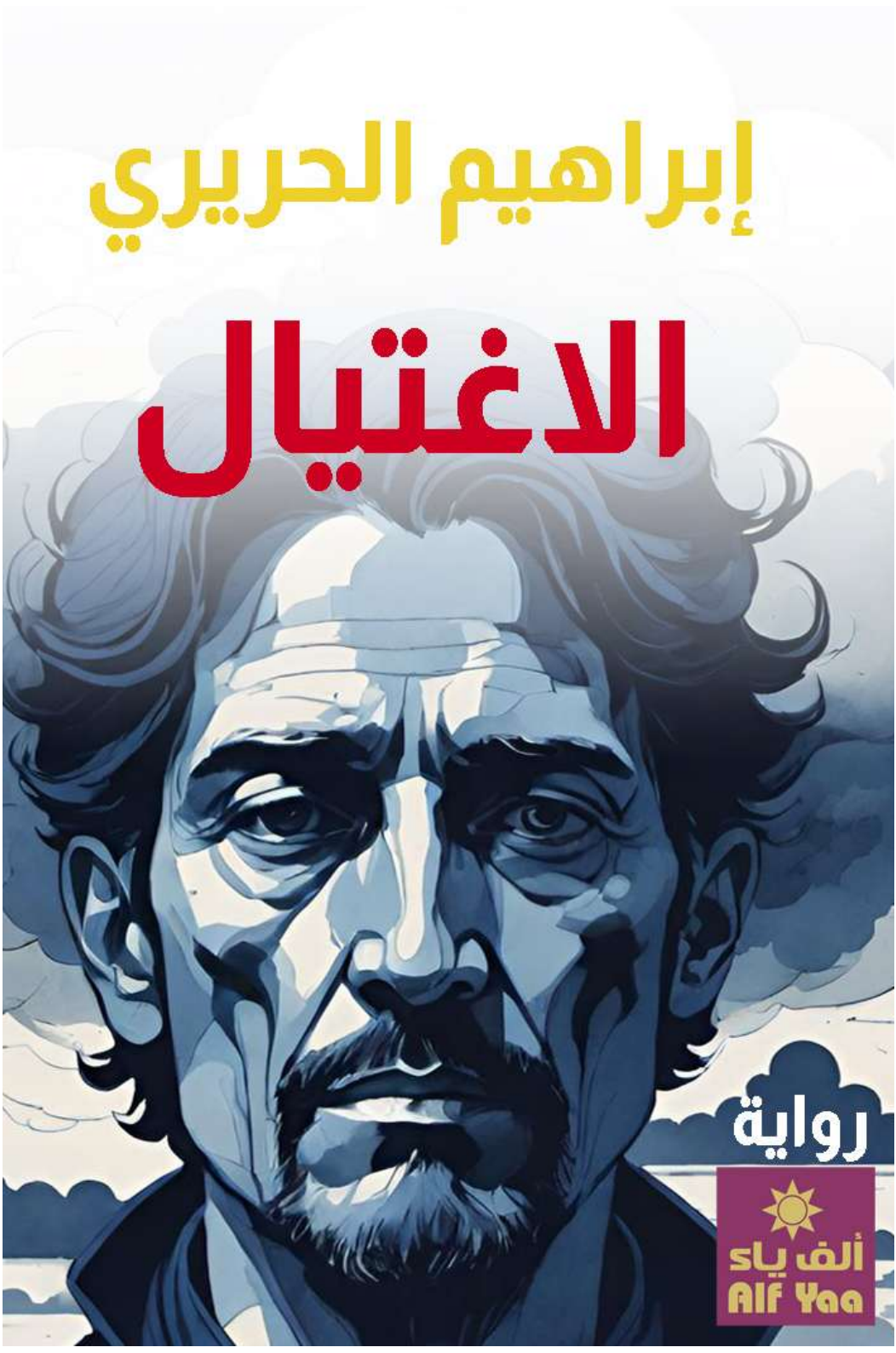

رواية

ألف ياء
Alf Yaa

الاغتيال

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المؤلف: إبراهيم الحريري
الكتاب: الاغتيال (رواية)

صدرت النسخة الرقمية: شباط/فبراير 2026

ـ الإصدار الأول للكتاب 1988 ـ شركة الفجر للطباعة ـ القاهرة

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePubوMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**«ألف ياء AlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إبراهيم الحريري

الاغتيال

رواية

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كتب القسم الأول من هذا النص عام 1970، ثم نحّى جانباً. عام 1980 أودع لدى مجلة **"البديل "** العراقية، وهي مجلة **رابطة الكتـاب والفنـانين والصحفيين الديمقراطيين العراقيين** الصادرة في بيروت آنذاك، وكان من المقرر نشره في واحد من أعدادها الذي اغتالته غـارة اسـرائيلية عـلى منطقة الفاكهاني في بيروت.

الأقسام الأربعة الأخيرة كتبت في الفترة بيـن أواخر حزيران / يونيو – أوائل تموز / يوليـو 1987.

نُشرت في **القاهرة** عام 1988.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

إلى أمي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المحتويات

مقدمة.....11
(1).....13
(2).....19
3- الصديق.....37
4 – الأم.....55
5- ابن الإنسان.....75

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مقدمة

صنع الله إبراهيم

ماذا يحدث لك، إذا طرق بابك من يعلن لك بابتسامة خفيفة أنه المكلف باغتيالك من قبل السلطة؟

موقف عجائبي؟ أنه من كثرة ما مر بالوطن العربي من أحداث. ومن كثرة ما شهدنا من عجائب أنظمته. يبدو موقفاً عادياً وواقعياً، ذا نهاية محتومة لا فكاك منها.

لكن إبراهيم الحريري. الكاتب العراقي (وكم توحي هذه المواطنة بألوان من التضحيات والبطولات ومشاهد دموية وفنون من الامتهان الوحشي للإنسان) في هذه الرواية القصيرة التي استغرقت كتابتها خمس عشر سنة، يحوّل هذا الموقف العجائبي إلى مواجهة لعذابات النفس وتمزقها بين "اشتراطات الإلوهية واشتراطات الإنسان"، وفرصته لتأمل الموت ورعبه.

وخلال ذلك تتكشف لنا بيد سحرية حياة الحيوانات التي يراد لنا أن نعيشها، والتي لا يوجد أمامنا غيرها إذا ما فكرنا في الاستسلام.

هكذا يلخص لنا إبراهيم الحريري تجربة جيل كامل من أبناء الأمة، عاش حياة عجائبية حقاً، إذا حمل على عاتقه هم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الوطن والإنسان، وكان صوته قوياً مدوياً ذات يوم، ثم تحالفت عليه قوى الشر، فأثخنت جسده وقلبه بالجراح، لكنه ما زال صامداً إلى اليوم، رغم ما يعاني من آلام.

إبراهيم الحريري كاتب متمكن، وبقدر ما تكشف لنا قراءة أخرى لهذه الرواية المكثفة عن العوامل التي فجّرت قوى الإبداع لديه، بقدر ما يمكن أن تفسر لنا كيف حرمنا طويلاً من هذا الإبداع الذي يتاح لنا اليوم أن نستقبله بغبطة مطالبين بالمزيد.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(1)

- معذرة.. ألست السيد (م)؟!

اقترب منّي شاب نحيل أميّل إلى الطول، أملس الشعر، ذو وجه شاحب لا يخلو من وسامة وفي يده صورة قديمة لي، ينقل عينيه بين الصورة وبيني.

- نعم، هل من خدمة أؤديها لك؟

رانت على وجهه ابتسامة خفيفة: "أنني (....) المكلف باغتيالك." مد يده مصافحاً.

"آه... أجل تذكرت..." وأنا آخذ كفه بين أصابعي "أهلاً، ولكنك تأخرت".

- معذرة. أنت تدري، الكثير من العمل هذه الأيام، خصوصاً، وعددنا ما زال قليلاً.

منشورات «الفـ ـيا» AlfYaa

"تفضل.. تفضل." قلت وأنا افتح باب المصعد.

دلف أمامي حاملاً حقيبته.

* * *

كنت قد استلمت قبل مدة طويلة كتاباً من السلطات تعلمني فيه أنها لم تعد ترى موجباً لبقائي حياً. وأنه بعد التشاور، تقرر اغتيالي، وأرفقت بالكتاب استمارة خاصة طلبت مني ملأها، تتضمن أسئلة عن عمري واسمي الكامل والأعمال التي مارستها، وآخر وظيفة شغلتها، وآخر راتب تقاضيته، وحالتي الاجتماعية (أعزب، متزوج، مطلق، أرمل) وعدد الأطفال (إن وجدوا) وهواياتي (الرياضة، المطالعة، السينما، المسرح، الموسيقى ..إلخ).

ثم بدأ يفد عليَّ العديد من الخبراء الاجتماعيين والنفسيين لدراسة حالتي. وعندما استفسرت، قيل لي أنها الطريقة العصرية للاغتيال. وحين بدا لي الأمر قد طال أكثر مما يجب، كتبت مستفسراً عما تم بشأن قضيتي، تلقيت كتاباً تعلمني فيه السلطة أن قضيتي بأيد أمينة، لكنها ما تزال موضع درس، وتنصحني فيما بدا لي أنه يشبه التأنيب، أن أترك الأمر للسلطات المعنية، فهي الكفيلة باختيار الشخص والوقت المناسبين لتنفيذ المهمة.

* * *

"أنه السيد (...) المكلف باغتيالي.." قلت لأمي وأنا أقدم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لها الشاب "ألا يبدو خفيف الظل؟"

"نعم.." قالت والدتي وهي تضع نظارتها على عينيها وتتفحص الشاب باهتمام، فيما بدا عليه بعض الخجل "لطيف فعلاً".

علت وجهه حمرة خفيفة. هز رأسه شاكراً.

"يبدو عليك أنك تعبان.." استطردت أمي.. "لم لا تنزل الحقيبة أرضاً وتستريح..؟ أنه بيتك على أي حال؟"

ـ ماذا تفضل: القهوة أم المرطبات؟

"القهوة، وسط." وهو يتهالك على مقعد مجاور.

نهضت والدتي لإعداد القهوة، انتهزت الفرصة: "هل نشرع الآن؟" قلت له وأنا اقترب منه.

- لست مستعجلاً.. يمكننا المباشرة في الإجراءات الأصولية بعد الغداء.

- نعم. بالتأكيد، سنتناول الغداء معاً، بالتأكيد. كيف فاتني الأمر؟

بالأحرى لم يفتني. لكنني فكرت أنه ربما كان من الأنسب عدم إضاعة الوقت.

ولما لاحظت في عينيه نظرة عتاب رقيقة، شعرت أنني ربما أبديت شيئاً من الاستعجال وعدم التبصر كعادتي.

- لا مانع لديك أن أكون ضيفك بعض الوقت؟

منشورات «الف باء AlfYaa»

"أنا؟ بالتأكيد لا. على الرحب والسعة." وأنا لا أكتم دهشتي "لكني حسبت أنك المكلف... بالعملية"

"وهو كذلك.. وهو كذلك." رد وفي لهجة أقرب إلى التبرم: "لكن يبدو لي أنك لم تسمع بالتطور الذي طرأ على مهنتنا.. الاغتيال – يا سيدي – وأجدني مضطراً لإيضاح الأمر لك – لم يعد امراً بدائياً يتم بعشوائية، كيفما اتفق، كما كان يحدث في السابق. وفي الواقع فقد انتبهت السلطات منذ مدة إلى أنه بين العديد من الحرف، فقد بقيت حرفة الاغتيال متأخرة، لهذا فقد شكلت لجاناً خاصة لتطوير الاغتيال وعَصْرَنَته إذا صح التعبير، سنتحدث عن ذلك مطولاً فيما بعد. أما بصدد إقامتي معك بعض الوقت، فإنها أحد مظاهر التحديث، التي أُدخلت بمبادرة شخصية منّي، لقد لاحظت أنه لا يجوز أن لا يعرف المغتال والذي تقرر اغتياله، أحدهما الآخر."

"لكن الأمر لا يهمني كثيراً..." قلت متردداً وفيما يشبه الاعتذار.

رفع حاجبيه مستغرباً، مستنكراً: "لكنه يهمني أنا! أن اغتالك قبل أن أعرفك معرفة وثيقة؟! أمر لا ينسجم مع أخلاقي ومزاجي وتربيتي. لكأنه اغتصاب!"

ــ الاغتيال مثل فعل الحب، عملية حميمة تتم بين شخصين، وكلما توثقت صلة الطرفين ببعضهما، بدت

منشورات «الف ياء AlfYaa»

العملية طبيعية وأكثر إنسانية، بل ومرغوباً بها..

دخلت والدتي تحمل القهوة.. احتسى قهوته متمهلاً متلذذاً، قال: "أنها قهوة جيدة لم يذق مثلها منذ مدة طويلة."

سرت والدتي. اهتم بأن يسألها كيف تعد القهوة، وأخرج دفتراً صغيراً راح يدون فيه بعض الملاحظات. قال أنه منظم ولا يعتمد على الذاكرة في تسجيل المعلومات.

خلال الغداء لم يفته أن يثني على طبخ والدتي، الأمر الذي أدخل السرور إلى قلبها.

قال أنه معتاد أن يستلقي قليلاً بعد الغداء، قدته إلى غرفتي. قلت أنها ستكون غرفته طيلة بقائه لدينا. شكرني. قال أنها غرفة نظيفة. مرتبة. سرتني التفاتته، ألقى نظرة على المكتبة، قال أنه سيهتم بها فيما بعد لأنه متعب الآن، لكنه مسرور جداً لأني أملك مكتبة، إذ لم يسمح له الوقت أن يصطحب العديد من الكتب. فتح حقيبته، سألني إذا كنت لا أمانع في أن يرتب حاجياته في خزانتي. بدأ بإخراج حاجياته قبل أن أجيبه، منشفة، نعل، فرشاة أسنان. ملف ليس سميكاً جداً عليه الأحرف الأولى من اسمي. الأمر الذي أحزنني قليلاً، فلقد كنت أتوقع أن يكون ملفي أكثر سمكاً. بعض الكتب: ديوان شعر. كتاب أو كتابان في التاريخ. كتاب مصور لفتني، استأذنته في أن أقلبه كان عنوانه: "ستون طريقة في القتل".

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أخرج حقيبة جلدية صغيرة مثل حقائب الأطباء., قال أنه يحتفظ هنا بالأدوات الضرورية، وأن بإمكاني أن أتفحصها، بل أنه يحبذ ذلك، لكي أكون فكرة عن "الموضوع" حبل حريري متين، مسدسان أو ثلاثة من أنواع مختلفة، مسدس مشط، مسدس بكرة، حقنة، بعض القوارير، قفازات.

لم أكن قد فرغت من تفحص حاجياته عندما انتبهت إلى شخير خفيف، التفتُّ، كان مستلقياً على ظهره في سريري، يشخر. عيناه مفتوحتان. هل كان نائماً؟ هل كان مستيقظاً؟

اقتربت منه لأتأكد، ابتسم، فتح عينيه على سعتهما، واستمر يشخر، ارتبكت، كانت ابتسامته تزداد اتساعاً، كذلك فتحتا عينيه، تسللت من الغرف على أطراف أصابعي قدمي، أطبقت الباب بأكبر قدر من الهدوء.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

(2)

خُيل إليّ أن أحداً يخبط الباب. أردت النهوض، إلا أن التعب والانفعال كانا قد هدّا قواي فاستسلمت للقيلولة من جديد.

كنت قد أغلقت الباب على الضيف. ثم أن أمي قالت أنها ستستلقي قليلاً. ولمّا لم يكن لدي ما أعمله. استلقيت على أريكة في الصالة..

..... وهكذا، إذن، سينتهي، أخيراً كل شيء.

أضاء مثل نيزك هاو شريط الذكريات:

الطفولة. الهارمونيكا التي ماتت فجأة. كنت تدلي قدميك من شباك مطل على الشارع تراقب المارة وتقلد الباعة تنفخ. تنفخ. عندما سكنت الهارمونيكا بين يديك. نفخت. نفخت عبثاً. قالت لك أمك أن الهارمونيكا انتهت. ماتت. بكيت. بكيت من قلب مقروح. كان ذلك لقاؤك الأول مع

منشورات «الفيحاء AlFYaa»

الموت.

الباص الخشبي الكبير. حمله لك خالك في العيد. وأنت تدحرجه على أرضية الصالة الفسيحة. عبرك رجل يحمل بين يديه لفافة بيضاء صغيرة كانت هي أختك، فيما كانت أمك تنهنه وتنشج وأبوك يحرق اللفائف.

كان لقاؤك الثاني مع الموت.

الصبا. اليقظة المبكرة. الرغبة في اكتشاف الآخر، التسلل تحت المقاعد والأشجار والشرفات والمراجيح واقتناص الدكنة الظليلة عند التقاء السيقان المُطَرّاة حيناً، أو السراويل الداخلية الزاهية الملونة، حيناً آخر، تلهب خيالك الجامح.

الملامسة الأولى. المطاردة بين مراجيح العيد وعربات الحلوى والمخلل المكشوفة للذباب. كانت ترتدي فستاناً من القطيفة نيلي.. نبيذي.. تنفر من تحت القطيفة استدارات أو بدايات استدارات. وعندما احتمت ببوابة دكان، تظاهرت أنك تريد أن تعبر إلى الداخل. التصقت بالاستدارات. ضغطت بعنف.. وأنت تعرق وتشتعل وتنتفض، تتنازعك الرهبة والزهو لاستسلام الاستدارات لضغط جسمك المتوتر.. ثم الخدر اللذيذ.

الفتوة. المظاهرات الأولى. الانفجارات المختلفة وانبثاقات الدم القاني. لقاؤك الذي ستكرر مع الموت والخوف. الخوف. الخوف من الخوف والطموح العاجز إلى بطولة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مستحيلة. أن تكون إنساناً من طينة خاصة. من جبلة على حدة. إلهاً متوحداً عصياً على الرهبة والرغبة والضعف الإنساني. اشتراطات الآخر المتعسفة، اشتراطات الذات الأكثر تعسفاً، يتآكلها الخوف الإنساني المشروع. الخوف. الخوف من الموت. الخوف من الخوف. التوق إلى البطولة... والخوف من البطولة.. والتمزق الداخلي بين اشتراطات الإلوهية واشتراطات الإنسان، يفضي إلى جلد الذات ومقاربة الموت.

تعبت من كل شيء. سينتهي كل شيء. الصراع المعذب ضد الذات وضد الآخر.. وهزائم الحب وهزائم السياسة.. سنوات القهر والحرمان الطويلة.. ثم الانهيار المريع. الانهيار المدوّي المريع ومحاولة لململة الإنسان- الإنسان، لا الإله الميت، من بين الركام.

الأخطاء والخطايا. أخطاؤك وخطاياك. أخطاء الآخرين وخطاياهم من سيفصل فيها وبينها؟

السقوط – النهوض – النهوض – السقوط..

تعبت من كل شيء. سينتهي كل شيء. سيأتي السيد الجميل، الموت. بل لقد أتى. قرع الباب وخطا إلى الداخل خطو الواثق المطمئن، وها هو يستلقي قيد أنملة.

أجفلني خبط شديد على الباب. خيّل إليَّ أنه يتهاوى. سيستيقظ الضيف! أين أمي؟ لماذا لا تفتح؟ قفزتُ إلى الباب.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ما كدت أفتحه حتى تدفق حشد هائل، تتقدمه أمي.

أزاحني الحشد جانباً. عجائز وصبايا. أطفال وشيوخ أناس أعرفهم وأبادلهم التحية. آخرون لا أعرفهم لم أرهم قط. تكوموا في المدخل ثم اندلقوا على الصالة والشرفة المتصلة بها. أطلوا من فتحة الباب ومن النافذة المفتوحة على الصالة. حاول آخرون اقتحام الباب الذي يفصل الصالة عن غرفة النوم. أدركتهم في اللحظة الأخيرة. سددت الطريق بجسمي.

بين الصياح والإيضاحات والإيضاحات المضادة والجمل المقطوعة، والكلمات المرتبكة وعبارات الاعتذار المتكررة، فهمت أنهم سمعوا أن لدينا ضيفاً مهماً وأنهم يريدون أن يروه ويتقدموا منه بطلباتهم.

فتشت عن والدتي. كانت تتربع طرف أريكة عند الزاوية، محاذرة أن يزيحها نساء وصغار تكوموا على الأريكة. وعندما التقت نظراتنا خفضت بصرها كطفل ضبط متلبساً.

"أيها السيدات ! أيها السادة ! أيها الصغار الأعزاء." قلت محاولاً رفع صوتي فوق جلبة الأصوات "إني أقدر رغبتكم في الترحيب بضيفنا العزيز وعرض مشاكلكم عليه. لكنه نائم الآن واعتقد أن مبادئ اللياقة تتطلب منا احترام قيلولته."

ساد، للحظة، الصمتُ، ثم انفجر الصخب من جديد. "تركتُ القدر على النار. لا أستطيع الانتظار". قالت امرأة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

"هذا موعد رضاعة ابني الذي تركته وحيداً في الدار." أردفت أخرى.

سأل شيخ يقطع كلامه السعّال عما إذا كان باستطاعتي أن أتوسط له عند الضيف ليستعجلوا اغتياله.

أردت أن أوضح، وأنا لا أقاوم شعوراً بالفخار والزهو لأنني بدأت اكتسب شيئاً من الأهمية مستمداً من استضافتي للشخص المهم، أن الأمر ليس بهذه السهولة، وأنه تطلّب مني انتظار سنوات عديدة ومراجعات لا حصر لها ولجاجة عادت عليّ بالتقريع أكثر من مرّة. وعندما أخذت أتنحنح محاولاً تقليد لهجة الضيف، عندما يشرع في حديث مهم، قفز إليَّ صغير وجذبني من جلبابي:

- هييه أين الهدايا التي جلبها لنا عمّو؟

تجاذبني الصغار كل من طرف. وحين قلت أن عمّو لم يجلب أية هدايا وأن حقيبته تحتوي فقط على مسدسات وحبل وحقن وقوارير تخصني أنا بالأساس، اقتعد الصغار الأرض يخبطونها صارخين. نظرت مرة أخرى إلى أمي التي كانت تخفي بالكاد ابتسامة شقاوة. ولم استطع أن احبس نظرة عتاب: ماذا فعلتُ لكي تضعيني في هذا الموقف الحرج؟ إلا أن ابتسامتها كانت تزداد اتساعاً.

"حسن حسن" توجهت إلى الحضور وأنا أدفع الصغار الذين تشبثوا بجلبابي محاولاً أن لا أبدو فظاً "سأستطلع ما

منشورات «ألف باء AlfYaa»

إذا كان ضيفنا قد استيقظ. بانتظار ذلك ساعدوني ! أرجوكم! التزموا الهدوء!"

فتحت الباب المفضي إلى غرف النوم. أعدت إغلاقه بأكبر قدر من الهدوء. توجهت إلى غرفة الضيف – التي كانت غرفتي – على أطراف أصابع قدميّ محاذراً إصدار أي صوت. توقفت للحظة عند الباب محاولاً خنق نوبة مفاجئة من السعال اجتاحتني. تغلبت عليها أخيراً. أصخت. وعندما لم اسمع أية نأمة، انحنيت واضعاً عيني عند ثقب المفتاح.

كان السرير المواجه للباب فارغاً تماماً. أدرت عيني باتجاه الطاولة – التي كانت طاولتي- معتقداً أن الضيف ربما كان يقرأ أو لعله، يحرر بعض الرسائل. إلا أن الكرسي المحاذي للطاولة كان خالياً هو الآخر.

للحظة اعتقدت أنني ربما كنت واهماً. وأن أحداً لم يأت. وأن الأمر بكامله من صنع مخيلتي النشيطة. لكن لعل الضيف قفز من النافذة هرباً من الحشد الذي امتلأت به الصالة؟

فتحت الباب نصف فتحة ودسست رأسي فيها. في زاوية في أقصى الغرفة كان الضيف بملابسه الداخلية واقفاً على يديه مدلياً رأسه بينهما، رافعاً رجليه إلى أعلى.

تراجعت مجفلاً. أطبقت الباب غير مصدق. قلت أنه نوع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

من خداع البصر. لمت نفسي لأني تركت نظارتي في الصالة. أردت العودة لجلب نظارتي حين استوقفني صوت الضيف الرخيم.

- تفضل !

عدت إلى الباب. ترددت بإزائه. سعلت أكثر من مرّة أدرت المقبض ذات اليمين وذات الشمال حتى كرر الصوت بلهجة آمرة:

- تفضل! قلنا تفضل!

تقدمت وسط الغرفة وأنا أتحاشى النظر إلى الضيف. وعندما لاحظ حرجي قال:

- بإمكانك أن تستريح على الكرسي ريثما أفرغ من رياضتي.

قلت للضيف مدارياً حرجي: "لدينا ضيوف. أنهم يلحون في طلب رؤيتك."

"أعرف. أعرف" رد برماً "لكني معتاد أن أمارس هذا الوقت رياضتي المفضلة؛ اليوغا"

"اليوغا؟" تساءلت وأنا لا أخفي دهشتي. "وهل هي جزء من الطقوس؟"

"أية طقوس؟" خفض حاجبيه مستنكراً.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

"طقوس الاغتيال." أجبت معتذراً.

"يمكنك أن تعتبرها كذلك." رد الضيف بلهجة ودودة.

"وهل ينبغي عليّ أن أفعل الشيء نفسه؟" وأنا لا أخفي ضيقي.

"يا عزيزي" أوضح الضيف وهو يرفع – لدهشتي- إحدى يديه مرتكزاً على الأخرى وحدها "الأمر متروك لك. أما بالنسبة لي فإن الاغتيال هو تعبير حر عن إرادة حرّة. والإرادة سلوك يُكتسب بالمران الطويل. وأنا أحاول" استطرد الضيف، "أن أحافظ على لياقتي المهنية. لقد استطعت التوصل إلى الوقوف مرتكزاً – كما ترى – على يد واحدة. وخطوتي التالية هي التعلق في الهواء من دون الارتكاز على أية يد."

"وهل هذا ممكن؟" وأنا لا أخفي لهجة عدم التصديق.

"ممكن. ممكن يا عزيزي" رد الضيف جازماً "بتنمية الإرادة باليوغا. هل تريد أن أجرب؟"

رفع يده الأخرى قبل أن يسمع ردي فدوى في الغرفة صوت ارتطام جسم معدني بالأرض. هرعت محاولاً مساعدته إلا أنه استقام على يديه مرة أخرى، مردداً بلهجة تنبئ عن العزيمة: "سأنجح في المرة الثانية أو التي تليها. سأنجح آخر الأمر هذه هي فضيلة اليوغا: التمرين الشاق للإرادة الحرّة."

منشورات «ألف باء AlfYaa»

"وهل يمكنني التوصل إلى الشيء ذاته؟" تساءلت وقد بدأت تجتذبني تجربة الإرادة هذه.

"قد لا يكون تبقى لك الكثير من الوقت" رد ضيفي بنبرة لا تخلو من الاعتذار، "لكن الأمر يستحق المحاولة على كل حال. لِمَ لا تجرب؟"

صحيح. لِمَ لا أجرب؟ فقد يتسع الوقت. ومع بعض التفهم والتسامح من ضيفي، يمكنني التوصل إلى الوقوف على يديّ الاثنتين، أو حتى على يد واحدة إذا فاق كرم ضيفي وتسامحه الحدّ. أما التعلق في الفراغ من غير ارتكاز فإنه غاية لا تدرك وطموح لا يُنال. لكن من يدري...

"جرّب!" قال الضيف مشجعاً، فاقتربت من الجدار متردداً. توقفت برهة. "هل أقلع جلبابي؟" وعندما لاحظ الضيف ترددي قال وكأنه يجيب على تساؤلي: "لا بأس بإمكانك أن تبدأ كما أنت"

انحنيت. استندت بكفيّ على الأرض. وعندما حاولت رفع رجليّ، انزلق جلبابي وتكوّم فوق كتفي ورأسي. أحسست أنني سأختنق. كنت أحاول، عبثاً، ملامسة الجدار بقدمي وعندما قمت بمحاولة أخيرة، خانتني يداي وتكوّمتُ على الأرض.

كان الضيف ينحني عند رأسي تماماً. حاول أن يساعدني على النهوض، وهو يربتّ على كتفي ضاحكاً كمن يربت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كتفي طفل سقط وهو يخطو خطوته الأولى.

- لا عليك. لا بأس. أنها محاولتك الأولى. وهي ليست فاشلة تماماً. المهم أن تبدأ. أن تمتلك الإرادة على البدء. ثم... حاول أن تتحرر من ثيابك في المرة القادمة؟.

انتبهت إلى ضجيج مكتوم عند الباب. كان الحشد، وقد اجتذبته ضجة سقوط جسمينا على الأرض قد هرع تتقدمه أمي، يستطلع ما يدور

"هل انتهيت منه؟" توجهت امي إلى الضيف عندما رأتني مكوماً على الأرض وهو يقف عند رأسي.

"كلا يا سيدتي!" زعق الضيف مؤنباً "أنا لم أكد أبدأ بعد!."

نهضت على عجل، أحاول تدارك التوتر، وأنا أغالب أوجاع الظهر والكتفين. اندفعت إلى أمي والحشد المشرئب خلفها أصدهم عن الباب دافعاً إياهم صوت الصالة مردداً: عيب! أنه ضيفنا. ماذا سيقول؟ ماذا سيقول الناس؟ لِمَ لا تدعونه يستمتع برياضته المحببة إليه؟.

طلب مني الضيف، قبل أن أغلق الباب منسحباً إلى الصالة، أن أعلن نيابة عنه أنه قادم خلال ثوان، ريثما يأخذ حمّامه ويرتدي حلة مناسبة.

* * *

"يا عذراء!" هتفت عجوز كليلة عندما انشق الباب عن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ضيفنا، وقد سرّح شعره الأملس، ينزلق على كتفيه حتى الأرض، ويرتدي برنساً مغربياً أبيض كنت قد اشتريته في واحدة من رحلاتي.

"يا عذراء! كأنه المسيح!"

شهقت أكثر من امرأة متزوجة. أما العذارى فقد أغضين أبصارهن. وران على الصالة صمت مهيب.

سأل صغير يقتعد حجر أمه: "ماما.. من هذا؟"

"أنه عمّو الذي سيغتالك عندما تكبر" ردت المرأة بصوت خاشع.

"ولماذا لا يغتالني الآن؟" سأل الصغير محتجاً وهو ينكمش في حجر أمه.

"هُسْ!" انتهرته أمه "لا تتدخل فيما لا يعنيك. وإلا قد يزعل عمّو ويقرر عدم اغتيالك.." فسكت الصغير على الفور.

تساءل صغير آخر متوجهاً إلى الضيف: "يعني الاغتيال وظيفتك؟"

"نعم." رد الضيف باسماً

- والله؟ لقد كانت أمي تخوفني: الله سيأخذ روحك لشقاوتك؟ أنت الله؟!

صمت الضيف متفكراً. كان يحاول أن يجلو الأمر بأكثر قدر من الوضوح والبساطة. أشار إلى الصغير فاقترب منه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

رفعه بين يديه وقبّله بين عينيه. كان يجسّ بشفتيه المكان الذي ستثقبه رصاصته فيما بعد.

"كان هذا من زمان.." رد الضيف أخيراً. "أما في أيامنا هذه التي تتسم بإشاعة الديمقراطية فقد سقط حكم الآلهة. وأخذ البشر المميزون منهم هذا الحق. إن بإمكان كل منا أن يصبح إلهاً" توجه إلى الحضور وقد استبدت به الحماسة "أن هدفنا النهائي هو إشاعة ديمقراطية الموت! أجل! ديمقراطية الموت! أي أن يصبح من حق الجميع أن يَقتلوا وأن يُقتلوا. لقد لاحظنا أن الديمقراطية الحديثة توقفت متهيبة دون إشاعة هذا الحق، مع أنه يشكل جوهر الديمقراطية باعتباره أعلى تجل للإرادة الحرّة. وهكذا كان علينا أن نكسب الديمقراطية مضمونها الحقيقي. أن نرفع الجميع إلى مستوى الآلهة. أن نخترق الحاجز الأخير. أن يصبح الموت حقاً مشاعاً للجميع.

توقف الضيف. كانت بدأت تتجمع عند جبهته المضيئة قطرات من العرق..

لم يفهم الصغير. هزّ بعض الشيوخ رؤوسهم متظاهرين بالفهم. فيما تثاءب آخرون. ولكزت جارة سمينة والدتي وهمست بصوت مسموع:

"قاتل.. وفيلسوف! هنيئاً لكم!" فانتهرتها أمي: "هش!"

* * *

شمل الضيف الحضور بنظرة حانية عطوف. كان مثل

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أمير يستعرض رعيته واثقاً من ولائها، ممتناً لهذا الولاء، فاضت عن عينيه نظرة امتنان معبرة.

وعندما توجه إلى أريكة تتوسط الصالة نهض بضعة عشر نفر كانوا يحتلونها على الفور وأخلوا المكان. واشرأبت من بوابة المدخل وبوابة الشرفة وشباكها عشرات الرؤوس، تزاحمت وتدافعت تريد أن تكتحل عيونها بمرأى الأمير الجميل.

"أشكر لكم حفاوتكم وترحيبكم." قال الضيف بنبرة مؤثرة عميقة. ثم متوجهاً إلى أمي "واعتقد أنكم تستحقون حفاوة مماثلة."

انتبهت أمي إلى تقصيرها. بدا عليها رغم خجلها لإهمالها، نوع من الاستياء لهذا التنبيه العلني الذي، رغم أدبه، لم يكن يخلو من رغبة في التقريع وفي اكتساب مودة الحضور على حسابها. نهضت إلى المطبخ متثاقلة.

قلت وأنا أحاول عبثاً أن أجد مكاناً بين الحضور، مشيراً إلى الأوراق في أيدي بعضهم:

- معذرة. لكن لضيوفنا بعض الطلبات أيضاً.

"بإمكاني أن أحدس" رد الضيف في لهجة لا تخلو من تأنيب. "لقد انتبهت إلى الأوراق في أيديهم. أحسب أنك شرحت لضيوفك ما كنت شرحته لك من قبل: الاغتيال عمل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مبرمج يتم وفق خطة منظمة، وبعكس العهود السابقة، لا مجال للوساطة في هذا الشأن، أننا نراعي عند ترتيب الأولويات، ليس أسبقية تقديم الطلب، فحسب، بل جملة عوامل أخرى. فإلى جانب الأقدمية، نراعي مستوى الذكاء، ودرجة الثقافة العامة والمؤهل التعليمي والوضع الاجتماعي – العائلي لمقدم الطلب، إلى غير ذلك مما لا يحصى من الاعتبارات، ونلقم كل هذه المعلومات الكومبيوتر الذي يقوم بترتيب القوائم وفق برامج معدة مسبقاً. ومع رغبتي الشديدة في مجاملتكم وإرضائكم وإرضاء مضيفي العزيز" وعندما لاحظ أمي التي أطلت من الباب تحمل صينية ازدحمت فوقها أكواب القهوة والشاي والعصير وصحون البسكويت والكعك والحلوى أضاف: "ومع احترامي لربة الدار ورغبتي الأكيدة في إرضائها هي الأخرى، إلا أن الأمر خارج عن إرادتي."

تقدمت أمي وسط الصالة وهي لا تخفي شعوراً بالامتعاض.

لقد أخبرت الجيران أن لديها ضيفاً مهماً، حاسبة أن استضافتها لرجل هو على هذا القدر من الخطورة، قد يكسبها، إذا توسطت لهم عنده، حظوة لدى الأهل والجيران والمعارف، وساءها أن يخيّب الضيف أملها.

ما كادت تضع الصينية على طاولة تتوسط الصالة، اختبأ تحتها عدد من الصغار يطلّون برؤوسهم بين الفينة والفينة، حتى تكوّم الضيوف: صغاراً وكباراً على الطاولة، وبينما

منشورات «الفـ ـيا» AlfYaa

تنـازع الكبـار أكـواب الشـاي والقهـوة والعصـير. تخـاطف الصغار قطع الحلوى والكعك والبسكويت، يزاحمهم في ذلك بعض العجائز والشيوخ.

حدث هرج ومرج عظيمان، وشكا بعض الضيوف أنهم لم ينالوا نصيبهم، فقامت أمي إلى المطبخ ثانيـة، وامتـلأت الأكـواب بالشـاي والقهـوة والعصـير والصـحون بالكعـك والبسـكويت والحلـوى مـرات عديـدة. وحيـن بـدا لأمي أن الدورة لن تنتهي وأن شَرَهِ ضيوفها لا حدّ له، انتحت الزاوية مقطبة. نظرت إليها وأنا لا أخفي شعوراً بالتشفي: ما كان أغنانا عن هذا الاحتفال!

كـان الضـيف يعتصـم بالصـبر المـترفع الجميـل ويبـادل الصغار الملاطفة والكبار الابتسامات.

قفز صـغير شقي إلى رقبته، همـس بصـوت مسـموع: | عمّو.. أين الهدايا؟ بيـبي..." مشـيرا إلى أمي، "قـالت أنـك حملت إلى عمّو هدايا.. أين حصتنا؟"

"الهدايا؟" تساءل الضيف متوجهاً إلى أمي التي اسـتولى عليها الحرج "أية هدايا؟" ثم ضاحكاً " آه... تذكرت".

خَفَّ إلى الـداخل مسـرعاً، عـاد يحمـل حقيبـة الأدوات. فتحها على الطاولة، وعندما تكوّم فوقها الجميـع، بمـن في ذلك الذين كانوا في الشرفة، توجه إليهم بلهجة لا تخلو من

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الحزم:

- مكانكم أيها الأعزاء! دعوني أريها لكم.

أخذ يعرض محتويات الحقيبة واحدة أثر الأخرى، بصبر معلم يعرض أدوات تعليمية في صف من التلاميذ الشقاة المشاغبين.

المسدسات والحبل الحريري المتين، الحقن، قوارير السم، وعندما تأكد أنه لم يفت أحد الحاضرين رؤية أدواته، أعادها إلى مكانها في الحقيبة.

"هذه الأدوات هي حصة عمّو" مشيراً إليَّ، "لن أنساكم في المرة القادمة."

لم أتمالك شعوراً بالفخر والاعتزاز، كابن مدلل خصّه أبوه من دون أخوته جميعاً، بهدية جميلة.

قلب الصغار شفاههم امتعاضاً، فيما أخذت اللواتي أقنعهن صغارهن بالقدوم لرؤية عمّو الذي يحمل الهدايا، أخذن يتململن.. وسوّت أكثر من واحدة ثوبها متهيئة للنهوض تحت إلحاح الصغار الذين خاب أملهم، وفضّلوا المغادرة إلى ألعابهم.

لفتتني عبارة الضيف عن المرة القادمة! أية مرّة قادمة؟ وهل ستكون هناك مرة قادمة حقاً؟ أم أن ضيفي سيقوم باغتيالي بالتقسيط! كأن يقطع أحدى يدي مرة ثم الأخرى "في المرة القادمة"! وكأن يفقأ أحدى عينيّ ثم يفقأ الأخرى

منشورات «ألف باء AlfYaa»

"في المرة القادمة"! قلت أني سأستوضح الضيف الأمر وإذا كان الأمر سيتم على هذا النحو فسأحتج! لكن لعل هذا يدخل في باب "عصرنة" الاغتيال التي تحدث عنها ضيفي لدى أول مناقشة لنا حول الموضوع.

وبينما كانت أمي تودع ضيوفها أخيراً، وهي تدفعهم فيما يشبه الزجر والطرد، طفرت العجوز الكليلة وسط الصالة محدّقة في الضيف الذي استولت عليه الدهشة. تجمّدت قبالته. انتابتها الرعشة وأخذت تصرح:

- يا عيسى الحي! أنه المسيح! قام!

ظلت تردد "قام! قام! حقاً قام!" حتى جذبتها أمي إلى المدخل وصفقت خلفها الباب.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

3- الصديق

"إنه ضيفنا.. الرجل المكلف باغتيالي." قُلت وأنا أقدمُ الضيف لصديقي.

* * *

كانت قد انقطعت بيننا الصلات منذ مدة. جمعتنا صداقة فتوة وشباب وأحلام وآمال وتجارب ثم ما لبث أن اختفى.

سمعت أنه غادر إلى بلاد أجنبية، وأنه حين عاد، قصد الجبال والوديان البعيدة.

خيّل إليَّ مرة أني لمحته عند عطفة زقاق يبيع الفرارات* والحلوى للصغار. هرعت إليه. وعندما أدركته، اختفى.

* *الفرارات: نوع من ألعاب الأطفال، وهي عبارة عن ورقة مربعة ملونة يجري قص أطراف زواياها، وشكلها من الوسط وترتيبها على قطعة من سعف النخيل، وتبدأ بالدوران عن مواجهة الريح وتُباع للأطفال.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

حين فتحت الباب لم أصدق عيني "كنت أحسبك مت" قدته إلى الصالة.

"بهذا السرعة!" أجاب باسماً "ما يزال لدي بقية من عمر أعيشها. الكثير من المشاريع أنجزها، والكثير من الأصدقاء أزورهم" وهو يحاول تخليص يديه من يدي.

مد يده إلى أمي. احتضنته مغالبة الدموع "أين كنت يا بني!" وهي تعانقه وتمسح كتفيه العريضتين.

وعندما انتبه إلى الضيف توقف متردداً مستفهماً.

"أنه الرجل المكلف باغتيالي" قلت موضحاً: "أنه صديق العمر."

قدمت صديقي للضيف "انقطعت بيننا الصلة وها هو يعود".

وقفا يواجهان بعضهما، يتبادلان النظرة المتفحصة.

وحين بدا أنهما أطالا الوقوف شد كل منهما يد الآخر الممتدة. وأبقاها في يده طويلاً. كانا مثل مصارعين يتفحص كل منهما الآخر لدى التقائهما على الحلبة.

"ستغادرنا إذن؟" توجه إليَّ الصديق متسائلاً وهو يخلص يده من يدي الضيف "ألا يحتمل أنك تسرعت كعادتك؟ ألا يمكن أن تعيد النظر؟

ـ تسلمت قبل مدة إشعاراً من السلطات تعلمني فيه أنها قررت اغتيالي. ولما لم يكن لدي ما أعيش من أجله، فقد

منشورات «ألف باء AlfYaa»

استعجلت القرار. حتى هذا لم يتم دون مراجعات عديدة تطلبت مني انتظار سنوات.

"ألا ينوي السيد تقديم طلب بهذا الشأن؟" تساءل الضيف متوجهاً إلى الصديق "أم أنه يفضل استلام إشعار رسمي بذلك؟ هل يمكنني أن أقدم مساعدة؟ ما هو عنوانك؟ هل تفضل استلام الإشعار عن طريق البيت أم من خلال العمل؟ بإمكانك الاعتماد عليَّ. يمكنني أن أكون مفيداً لك" كان يتكلم بدراية وحماسة وإخلاص مندوب مبيعات يروج بضاعته.

- بالتأكيد! يمكنك الاعتماد عليه! بالتأكيد! أنه رجل الملمات! الصديق وقت الضيق!

عقبت أمي بلهجة لا تخلو من سخرية "يا بني!". استطردت أمي مواجهة الضيف "ألا ترى أنهما صديقان قديمان لم ير أحدهما الآخر منذ سنوات؟ ألا يمكنك، للحظة، تأجيل حديث العمل؟ أليس حرياً بك أن تنتهي من هذا" مشيرة إليَّ "قبل أن تبدأ بالآخر."

"معذرة" قال الضيف "كنت أحسب أنني أعمل معروفاً، أقدم خدمة..!"

- سيتسنى لك تقديمها فيما بعد. لا تستعجل يا بني!

"يبدو أنه ليس لدي ما أعمله بينكم" قال الضيف وهو ينسحب إلى الشرفة، "الآن على الأقل!"

نظرت إلى أمي معاتباً. "أكان عليك أن تغضبيه؟ أنه

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ضيفنا! ثم أنه يقوم بواجبه؟"

"هكذا إذن! سينتهي كل شيء؟" كرر الصديق برنة أسى.

"انتهى من زمان..." قلت وأنا أهز رأسي "انهار كل شيء. كان عليك أن ترى كل شيء ينهار أمامك وفي داخلك. البناء الشامخ المتين، أن تقف عاجزاً عن منع الانهيار الشامل. بل أن تنهار معه. السقوط العظيم. الدوي العظيم. داخلك وخارجك. كان عليك أن تعيش كل هذا، أن تموت كل هذا، لتعرف معنى أن أتوصل إلى أنه لم يعد لدي ما أعيش من أجله. كنت كمن يرى أباه يقتل أمامه ويشارك في قتله."

"لماذا تحمل نفسك وحدك مسئولية ما حصل؟" تساءل الصديق معزياً "ونحن – أيضاً- نتحمل قسطنا من المسئولية، لعله القسط الأوفى ألم تقرأ التقييم؟"

"التقييم؟ أي واحد منهم؟" وأنا لا أخفي انفعالي "والذين دفنوا أحياء؟ والذين تمزقوا أشلاء؟ والأحياء- الموتى؟ الذين اغتصبوا جسدياً وروحياً واللواتي اغتصبن؟ الذين انكسرت ظهورهم وانحنت رقابهم ذلاً؟ الذين تشوهت نفوسهم؟ من يعيد لنفوسهم نقاءها الجميل المفقود؟ أنه عمرنا الذي انقضى سنوات الفتوة الآفلة والشباب الذي ذوى. إلهنا الذي هوى" انتبهت إلى نفسي ألوح وأصرخ في وجه الصديق.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

"مهلاً.. مهلاً! يبدو لمن يسمعك وكأننا وحدنا المسئولين، ماذا أبقيت من غضبك للجلادين؟ أي إنصاف في هذا؟" قال الصديق وقد استبد به الانفعال.

- قد تكون محقاً.. لكنني أتساءل: أكان يتوجب دفع هذا الثمن الباهظ؟

- لكنها المعركة! لكنها الحرب! أية معركة يمكن كسبها من دون خسائر؟ أي قائد يضمن أنه لن يخسر معركة أو أكثر في مجرى حرب ضارية؟

توقفت لم تكن لدي رغبة في مواصلة النقاش

"اسمع!" قلت بعد تردد: "لم تعد بي رغبة في خوض أية معركة. لقد هزمت وأريد أن أغادر."

- بالإمكان البدء من جديد. بإمكانك البدء من جديد. عندها قد يمكن رد اعتبارك..

قلت وأنا لا أخفي حزني: "ما زلت ترى إلى نفسك، وبعد كل ما حصل، أباً مستبداً يعاقب ويثيب. كنيسة كلية تلقي الحرم أو تمنح الغفران، إلهاً متجبراً يُحيي ويُميت. مطلقاً، نسبياً كلي العدم.

أيها الصديق! أيها الأصدقاء! كم أنا حزين...

ليس من أجلي بل من أجلكم.

السقوط والنهوض قراران ذاتيان. فعلان للإرادة الإنسانية

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وليسا تجلياً للإرادة الإلهية.

أيها الأصدقاء! متى تغادرون منصة الآلهة؟"

- ألا تلاحظ أيها الصديق أنك، وأنت تطالبنا بمغادرة منصة الآلهة، تصلبنا عليها بتعاملك معنا انطلاقاً من اشتراطات الآلهة غير المسموح لها أن تخطئ؟

"هذا صحيح" أجبت "لكن ألا تلاحظون أنكم بينما تريدون للآخرين أن يعاملونكم كبشر يخطئون، تصرون على التعامل مع أخطاء الآخرين من موقع الآلهة؟"

"ثمة خطأ.. ثمة التباس.. ثمة خطأ" كرر الصديق "لعله في التصور ذاته."

"هذا صحيح. خطأ في التصور" أجبت مؤكداً "خلق الإنسان ''يهوه'' كاملاً تعويضاً عن نقصه. قوياً بديلاً عن ضعفه. فكان لا بد أن يغترب عنه ويتعالى عليه وأن يصبح الإنسان عبداً له، عبداً لما خلقه. لكن ما أن كان الإنسان يكتشف خطأ تصوره حتى كان يقتل صورة ''يهوه'' الذي خذله، وليس تصوره. إلا أنه كان يعود إلى خلق إله آخر لا يقل جمالاً وكمالاً وجبروتاً.. ولا إنسانية أيضاً."

"أين الحل؟" صرخ الصديق "في قتل يهوه؟"

"لا أدري.. قد يكون في أنسنته" أجبت كأنني احسم بذلك نقاشاً داخلياً استنفذني طويلاً.. "وإلا فأنه سينتهي لأن يعيش وحيداً.. ويموت وحيداً.."

منشورات «الف ياء AlfYaa»

تصرّم الجدل الخارجي. توقف النقاش. كان يسمع فقط هدير صخب داخلي في التماعات العيون لدى التقائها، ولدى افتراقها...

"فلنحاول.." قال الصديق مبدداً الصمت.

- حاولوا أنتم! أما أنا فقد تعبت. تعبت من كل شيء. من نفسي ومنكم. من صراعي ضد نفسي. من صراعي ضدكم، ومن صراعي من أجلكم. تعبت من كل شيء.. آن لي أن أغادر.

- الثورة ليست كل شيء، ثمة الكثير مما يستحق أن يعيش المرء من أجله، لم لا تجرب أن تعيش مثل ملايين الناس حياة عادية، تتزوج وتنجب..

"وتنتظر الموت!" أكملت ساخراً "يا صديقي! يا صديقي العزيز! أبهذا حلمنا؟ أمن أجل هذا تشردنا وتعذبنا وأفنينا أحلى سنوات العمر؟ لكي ننتهي بقالين؟ جحر مظلم. مئزر مبقع. جدول بالديون والأسعار وأيام الجماع و... ''الجمعة عطلتنا''!"

"كلا!" صرخت كأني أكرر بذلك فكرة راودتني "كان بإمكاننا أن نفعل هذا منذ البداية. إلا أننا رفضنا يحدونا الأمل بتغيير العالم."

"الحياة العادية؟" تساءت مستنكراً "بعضنا استطاع أن يهرب إليها، بل أن يغوص حتى أعماقها، استعاض عن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

اقتحام العالم بنبالة الحالم، باقتحام النساء والبنوك وصالات القمار. كان كمن ينقل استثماراً من مشروع خاسر إلى مشروع آخر أوفر ربحاً.. ارتضى السقوط وتعايش معه. بل استثمره رأسمالاً إضافياً. بعضنا سقط في الإدمان. آخرون، كثر، سقطوا في النسيان. من قال لك" وأنا أحاول أن أخفض صوتي "من قال لك أنني لم أحاول أن أنسى كل شيء. أن أعيش الحياة العادية التي تقترحها؟ لقد حاولت ذلك، لكنني فشلت. كنت كمن يخدع نفسه. ليس هذا طريقي للتحقق.."

"البطولة أو الموت إذن؟" تسائل الصديق "ثمة طرق أخرى للتحقق.".

- بالنسبة لي كان ثمة طريق واحد، وعندما خسرته، خسرت كل شيء. خسرت معنى أن أكون، بت مثل آدم الذي وجد نفسه طريداً شريداً لارتكابه الخطيئة الأصلية.

"لكننا نسل آدم يا بني ولسنا نسل الآلهة،" تدخلت أمي، "الآلهة تعيش وحيدة، مكتفية بذاتها، لا تلد ولا تولد، لا تخطئ ولا تخصب. لكن حتى الأنبياء يخطئون. حتى آدم نسى الجنة عندما التقى حواء مرة ثانية. لطالما قلت له" متوجهة إلى الصديق، "انس يا بني. دعني أخطب لك ابنة الحلال. دعني أفرح بك وبأولادك.. لكنه بدلاً من ذلك استدعى الضيف العزيز.."

منشورات «الف باء AlfYaa»

"ثمة طرق كثيرة لمواصلة الحياة، للتحقق.." كرر الصديق مؤمناً.

- وفي مقدمتها الموت!

التفتنا جميعاً صوب النافذة. كان الضيف ينحني عبر النافذة في مواجهتنا.

"بل أنه أعلى أشكال التحقق!" استطرد "أنك تنصح صديقك – وأنت أيضاً يا سيدتي- بأن يخلد إلى الحياة العادية. لكن ما هي الحياة العادية بنظركما؟"

"الحياة التي عشتها أنا وعاشها أبي وأمي من قبلي.. الحياة التي يعيشها ملايين الناس في كل مكان." ردت أمي.

"كفى!" صرخ الضيف. أنشب أصابعه في خشب النافذة "الحياة العادية؟ ألا تخجلا من أنفسكما؟ ألا تخجلا من كونكما أحياء؟"

"أيها السيد!" اعترضت أمي والصديق وهما يهمان بالنهوض.

"معذرة. لا اقصد إهانتكما. أحاول، فقط، توضيح أفكاري. هل تعرفان ماذا تعني الحياة العادية؟ الأكل والتبرز والتبول وممارسة الجنس. الوظائف البيولوجية، هل راقب أحدكم نفسه وهو يمارس الحياة العادية؟ وهو يأكل.. وهو يتبول.. وهو يتبرز.. وهو يتناكح.." محركاً يديه بإشارة بذيئة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

"أيها السيد" صرخت والدتي وهي تنهض "لقد جاوزت الحد!"

- معذرة مرة أخرى. لكن أليس هذا ما تفعلونه جميعاً؟ أليست هذه هي الحياة العادية؟ ينبغي أن تفعلوا ذلك أمام المرآة لتكتشفوا سخفه وحيوانيته. إن حمل الناس على ممارسة الوظائف البيولوجية أمام المرآة هو واحد من أفكاري. أنها الخطوة الأولى لجعلهم يكرهون أنفسهم ويكتشفون جمال الموت. سنضع مرآة أمام كل مرحاض وأمام كل سرير نوم وأمام كل مائدة طعام. سننصب مرايا على كل جدار وفي كل ركن. عندها سترون – جميعاً – كم أنتم سخفاء مضحكون وحيوانيون وأنتم تمارسون الحياة العادية.

أنها عمل من أعمال المصران، لقد أدرك ذلك كاتب عظيم* فتوجه لملاقاة الموت الجميل.

- لكنه أدرك خطأه فيما بعد "اعترض الصديق" كرس حياته من أجل أن يعيش الناس حياة أقل مشقة.

- بل أنه تردد وفشل. استنفذت المحاولة الأولى طاقته فلم يعد أمامه إلا انتظار أن يأتي الموت إليه بعد أن فشل هو في ملاقاته.

* مكسيم غوركي حاول الانتحار في مطلع شبابه مخلفاً عبارة: الحياة عمل من أعمال المصران.

منشورات «الف باء AlfYaa»

"هل ستنصب مراياك في بيتنا أيضاً؟" تساءلت أمي مستنكرة

- "نعم يا سيدتي!" أكد الضيف متحدياً مستفزاً "أنها في الطريق إليكم".

- "كلا!" صرخت والدتي "إنه بيتي! بإمكانك أن تفعل به ما تشاء" مشيرة إلي "لكن لا يمكن أن ترغمني على دخول الحمام تراقبني مرآة."

- بل تراقبين نفسك. لماذا تخافين ذلك؟ أليست هذه هي الحياة العادية؟ أليس هذا ما تمارسه الحيوانات أيضاً؟

أردت أن اسأل الضيف: وأنت؟ ويبدو أنه حدس ما أفكر به فأردف "وأنا أيضاً! لكني اختلف عنكم في أمر واحد: أنني أكره الحياة العادية! أكره نفسي لأنني أمارسها. اختلف عنكم في أنني أريد أن أضع حداً لها. وإذا كنت أؤجل ذلك، إذا كنت أؤجل ملاقاة السيد. فمن أجلكم. من أجل مساعدة الآخرين على التعرف بسيدي واكتشاف بهائه. ورغم أنني لا أمنّ عليكم، إلا أن بإمكانكم أن تدركوا أية تضحية أقدم عليها من أجلكم"

"شكراً! أنك تكلف نفسك كثيراً!" كان يمكن اكتشاف رنة سخرية في صوت أمي. نظرت إليها مستعطفاً، مؤنباً

ران علينا جميعاً الصمت. بدا لنا منطقه غريباً بقدر ما هو مقنع!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وبينما كان يدير بيننا عينين لامعتين مزهوتين، كنت أتذكر كيف أنني لم استطع أبداً أن أوفق بين الحب وبين ممارسة الوظائف البيولوجية. كان مجرد تصور فتاة الأحلام، هذا الكائن اللدني النوراني، تمارس الوظائف البيولوجية يورثني السقم والقرف.

"أجل أيها الأعزاء" استطرد الضيف "وبينما يتشارك الإنسان مع سائر الكائنات الحية في ممارسة الوظائف البيولوجية، فإنه يختلف عنها في قدرته على ممارسة الموت كفعل حر! هل سمع أحدكم أن حيواناً انتحر؟ لكن الإنسان يستطيع أن يفعل ذلك. بل ينبغي أن يفعله ومهمتنا مساعدته على أن يفعل!"

"الحيوانات تموت أيضاً" قال الصديق مجادلاً "والإنسان أيضاً" رد الضيف "لكن ليس كفعل إرادي. ثمة فرق واضح بين الاثنين."

"لماذا تستعجل موت الناس؟ سيموتون جميعاً في النهاية.." تساءلت أمي مندهشة.

- بعد أن يخلفوا جيلاً جديداً ينغمس في ممارسة الحياة العادية، ويخلف هذا جيلاً آخر يفعل الشيء ذاته؟ كلا أيها الأعزاء! ليس هذا نوع الموت الذي نريده لكم وللناس. أننا نطمح لأن نستأصل الحياة من جذورها..

"لِمَ لا تستخدمون القنابل الذرية وتريحون الناس

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وتريحون أنفسكم؟ إنها على كل حال أخف وطأة من دخول الحمام بصحبة مرآة" قالت أمي.

"كلا يا سيدتي!" أوضح الضيف "هذا مناف لأخلاقنا ولطريقتنا. أننا نفضل إتبّاع طرق الإقناع والتثقيف، تثقيف الناس بسخف الحياة وجمال الموت."

"عن طريق المرآة؟" تساءلت والدتي.

"لماذا تقلقك المرآة؟ أنها واحدة من وسائل عديدة. ثمة وسائل إيضاح أخرى: صفوف نهارية مختلفة وصفوف ليلية إذا تطلب الأمر. صفوف للمتقدمين. لقد أعددنا برامج كاملة – كان لي فضل اقتراح بعضها" بلهجة لا تخلو من تفاخر. "لتعويد الناس على تقبل فكرة الموت، لم نغفل فيها أهمية الحوافز الفردية في البداية."

"لا استطيع أن افهم!" قال الصديق "لِمَ هذا الحقد على الحياة أجمل ما حبتنا إياه الطبيعة؟"

- ستفهم ذلك. ستفهم بالتأكيد فيما بعد. بل دعني اشرحه لك الآن: إنك تسميه حقداً على الحياة، فيما نسميه نحن تصحيح خطأ من أخطاء الطبيعة. قبل الحياة كان ثمة الموت وسيظل بعدها أيضاً. الحياة خروج عن المسار الطبيعي لنسق الكون. توهج كاذب بين عتمتين.

- لِمَ تريد لهذا الوهج أن ينطفئ؟ لِمَ تريد أن تسود العتمة وحدها؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- وهل تستحق الحياة كل هذا العناء؟ هل تستحق وعي الموت وعذاب انتظاره؟

"قولوا لي" توجه إلينا جميعاً "من منكم لم تؤرقه فكرة الموت؟ أي إنسان لم يرتعب ويرتعد ويتعذب أمام موته الخاص؟ هل تستحق الحياة هذا العذاب؟ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعي موته ويتعذب أفظع عذاب بسببه. لو لم يُوهب الحياة – كما تسمي ذلك أنت – لو لم ترتكب الطبيعة هذا الخطأ، أكان الإنسان عانى عذاب انتظار الموت، ومحاولته عبثاً الهرب منه، ثم مواجهته فرقاً مثل جرذ؟ أهذا هو نوع الحياة الذي تبشر به؟" متوجهاً إلى الصديق "والذي تتمسكين به يا سيدتي وتحرضين ابنك على التمسك به؟ لقد فقد الرغبة في الحياة، بعد أن أدرك سخفها وحمقها.. فلماذا لا تساعدونه على تحقيق رغبته؟ ألا يعد هذا – من وجهة نظر حقوق الإنسان – انتهاكاً للحرية الشخصية بل أنبل ما في الحرية من معان وأكثر حقوق الإنسان قداسة: حق الموت؟"

"الهرب من الموت.. إلى الموت! لا استطيع أن أفهم" توجه إليَّ محاولاً إشراكي في النقاش.

بدا لي الأمر محرجاً. أن يناقش الجميع فكرة موتي دون أن أجد الرغبة في المساهمة. حاولت عبثاً العثور على كلمة مناسبة إلا أني فشلت، فالتزمت الصمت.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

"لكن" تساءل الصديق: "كيف يتسنى لكم اجتثاث الحياة الإنسانية بالكامل؟ ألا يبدو هذا مستحيلاً؟"

"ليس في قاموسنا مستحيل. لقد أعددنا لكل شيء. وريثما يتم لنا إقناع الناس بجمال الموت فإنه لا مفر، في البداية من تقسيمهم إلى طبقتين: طبقة القتلة، وطبقة القتلى. لكن عندما ينتشر الوعي بجمال" قال: " إنه السيد. عندما تسود الرغبة في التوحد بلا نهائيته، عندما يدرك الجميع أنه هو – هو المطلق الوحيد، وأنه نسبي كل ما عداه، عندها..." أولانا الضيف ظهره، استدار إلى الشرفة فهرعنا جميعاً إلى النافذة.. كان يتقدم إلى السور يتخلل الهواء عباءته البيضاء المهفهفة. اعتلى السور كأنه يطير. فرد ذراعيه. بدا نسراً أبيض هائلاً موشكاً على التحليق.

".. عندها سيتقدمون منه

بأذرع متشابكة وصفوف متراصة

صفاً إثر صف

صفاً إثر صف

شجعان غير هيابين

أنقياء جميلين

أطفالاً ذاهبين لملاقاة أبيهم

العيد الذي ينتظرهم محملاً بالهدايا

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يتقدمون نحوه

هو

السيد

المطلق

البهي

الكلي

الموت؟"

"كأنه في حضرة الله!" هتفت أمي مبهورة.

"أو في حضرة الموت!" أردف الصديق.

حبسنا أنفاسنا. تعلقت عيوننا به. وحين بدا أنه يخطو خطوته الأخيرة، استدار فجأة. واجهنا مقهقهاً. قفز إلى النافذة فتراجعنا وسط الصالة. فرد ذراعيه مرة أخرى فتراخى الرداء على جانبيه يسد النافذة. انقض علينا، فانكفأنا متعثرين.

ارْتَدَّتْ أمي إلى الجدار مفزوعة، بينما امتدت كفّيّ الصديق الهائلتين تطبقان على عنق الضيف المستدق الطويل. دفعه غلى الجدار. ضغط. ضغط حتى جحظت عيناه.

"ماذا تفعل؟" وأنا أتداخل بينهما محاولاً تخليص الصيف.

"دعني أرسله إلى مطلقه!" رَدّ الصديق حانقاً.

"قبل أن يغتالني؟ ليس هذا من حقك. أنه ضيفي!" أفلحتُ

منشورات «ألف باء AlfYaa»

في تخليصه فتهالك على مقعد مجاور.

وقف الصديق وسط الصالة. كان الشرر يتطاير من عينيه. خاطبنا وهو يتوجه إلى باب الخروج. كنت سأنهيه. أنها الطريقة الوحيدة. سيخربكم من الداخل إن لم تقتلوه أو تطردونه. سيخرب نفوسكم! وهذا أفظع من الموت..

قبل أن يطبق الباب خلفه، أدركه صوت الضيف:

- لم تترك عنوانك!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

4 – الأم

حل بيننا الوجوم مثل ضيف ثقيل، كان الصديق قد غادر، وكان الضيف – الذي لم يفته أن يلاحق الصديق مطالباً إياه بعنوانه – يسترد أنفاسه.

كان الشحوب يبارح وجهه، وتفارق غينيه النظرة الزائغة، وكانت والدتي، التي سبب لها الموقف بأسره مزيجاً من الرعب والانفعال والحرج، تشبك يديها في حجرها ثم تعيدهما إلى جنبيها، مُنَقِلةً بيني وبين الضيف نظرة مسترقة. ولم أكن أقل حرجاً وخرقاً من أمي. هل يتوجب عليَّ الاعتذار؟ وكيف؟

لم أكن أعرف كيف أبدأ. تنحنحت أكثر من مرة ممهداً للاعتذار والإيضاح:

- إنه صديق قديم.. انقطعت بيننا الصلة، عادة فجأة. لست

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مسئولاً. يبدو أنه يعاني من اضطراب عصبي بل اختلال عصبي. اختلال. أنها الكلمة المناسبة. وإلا كيف سولت له نفسه مهاجمة ضيفي في عقر داري؟

الاختلال. الغرب والتشرد. أجل. أنها الكلمة المناسبة.

"أحمق!" انفجر الضيف مقهقهاً. نظرت إليَّ والدتي. لم تكن أقل استغراباً مني.

"أحمق ومتوحش!" أردف الضيف وهو يضرب كفاً بكف. مرة أخرى التقت نظراتنا أنا وأمي. كنا نفكر بالشيء نفسه. لماذا تبدو محاولة الصديق خنقه، حماقة؟ ألم يكن يفعل ''الشيء'' نفسه؟

"كلا!" بَادر الضيف كأنه يقرأ أفكارنا "الأمر هنا مختلف. لقد كانت محاولة صديقكم قتلي رد فعل عصبي، بدائي. متخلف. لم تكن نتيجة تفكير وتخطيط عقلانيين. وهنا نقطة الاختلاف الجوهرية بين محاولة صديقكم الأحمق وبين الاغتيال من وجهة نظرنا."

"تحدثت إليكما من قبل عن 'عصرنة الاغتيال'" استطرد الضيف متمهلاً وهو يبذل عناية كبيرة في انتقاء كلماته مثل أستاذ يشرح لتلاميذه درساً صعباً "بدو أنني مضطر لأن أوضح لكما جانباً آخر من جوانب الاغتيال"

توقف الضيف مشدداً على كلمة ''أعني عقلنة الاغتيال''. "الاغتيال هنا، ليس أبداً رد فعل عصبي، ليس قراراً

منشورات «ألف باء AlfYaa»

انتقامياً. تصوروا" توجه إلينا الضيف محاولاً مشاركتنا رؤيته "تصوروا هيئة من الرجال والنساء، لا تنقصهم الحكمة ولا التجربة يجتمعون لدراسة ملف شخص معين.إنهم لا يعرفونه، هم لا يعرفون حتى اسمه، إذ ينزع عن الملف، كما يحدث لأوراق الامتحانات التي تقدم للهيئة الفاحصة، كل ما يشير إلى صاحبها. رجال ونساء منزهون عن الهوى والغرض، عن المحبة والحقد، مثل آلهة، يدرسون بكل حياد وموضوعية الملف – الشخص بين أيديهم، قد يختلفون وقد يتفقون، لكن ليس للعواطف الشخصية دخل في اختلافهم أو اتفاقهم، يجمعهم حب الحقيقة، - الحقيقة وحدها- وحب الشخص- الملف، والأمانة لتقاليد المهنة. عندما يتم اتخاذ القرار" استطرد الضيف مبهوراً بالصورة التي رسمها لمجمع الآلهة "وغالباً ما يتخذ بالأكثرية – نحن نؤمن بالديمقراطية وبحق الاختلاف – فإنه يتم بالحياد والموضوعية ذاتهما، اختيار الشخص أو الأشخاص المكلفين بالتنفيذ، إنه، إنهم، لا يعرفون الشخص المطلوب اغتياله، لا مجال لاتهامهم بالحقد الشخصي. هل رأيتني من قبل؟" توجه إليَّ الضيف فجأة.

- أنا؟ كلا.

- وأنت يا سيدتي!

"كلا!" أجابت والدتي وهي لا تخفي دهشتها.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

"هل بإمكانك، أو أي أحد، الزعم أن ثمة مشكلة شخصية بيني وبين السيد" مشيراً إليَّ "تدفعني لاغتياله؟"

"لا." أجبت مؤكداً، فيما التزمت والدتي الصمت.

- بل أنه يمكن القول أنني بدأت أميل إليه واستلطفه. واحسب أنك تبادلني المشاعر ذاتها.

"بالتأكيد. بالتأكيد مثلها أو أكثر." سارعت إلى الرد.

- معذرة. لعلي طرحت أسئلة بديهية.. وسخيفة. أليس كذلك يا سيدتي؟

ظلت أمي معتصمة بالصمت.

- ما أردت الوصول إليه، أننا نحن المكلفين بالتنفيذ يسوقنا فقط الحس بالواجب، واجب مساعدة الناس الذين فقدوا الرغبة في الحياة أو الذين ترى السلطات أنهم يجب أن يفقدوها، مساعدتهم على اتخاذ أكثر القرارات أهمية في حياة كل إنسان، أعني: الموت.

"هذا هو الفرق" قال الضيف مُنَقِلاً بيننا عينين متفحصتين، يريد أن يتأكد أننا وعينا الدرس "الفرق الثاني، وهو لا يقل أهمية، أنه بينما نلجأ نحن إلى جميع الوسائل التثقيفية – Teaching Aids- أعني وسائل الإيضاح لتنفيذ قرار الموت، ونترك للذي تقرر اغتياله حرية اختيار الطريقة التي يفضلها، فإن صديقكم أطبق، مثل مخبول، كفيه على رقبتي منتهكاً بذلك مبدأ حرية اختيار الوسيلة. أحسب

منشورات «الف باء AlfYaa»

أنكما تشاركاني الرأي. أن سلوك صديقكما يفتقر إلى الحس الحضاري، إن لم أقل إلى التهذيب Sauvage! Sauvage*! بالمناسبة" ملتفتاً إليَّ "أية طريقة تفضل؟" فاجأني السؤال. لعله لم يفاجئني تماماً. فلقد انتبهت إلى نفسي أكثر من مرة، وأنا أقلب الأمر. طلقة في الصدغ. قد يؤدي هذا إلى انفلاق الجمجمة وتناثر الدماغ كما حدث لصديق انتحر. تناثر مخه على الجدار. وهذا فضلاً عن أنه غير جميل، سيكلف والدتي بعض العناء.

تصورتها ترتقي السلّم. بيدها فوطة وبالأخرى دلواً، تمسح نثار الدم والمخ عن الجدار، فأورثني هذا، الحزن، ثم أن صوت الإطلاقة قريباً من إذني – وأنا الذي أشكو حساسية مفرطة من الأصوات المرتفعة – قد يُجْفِلني، وليس من المناسب أن يذهب المرء إلى الموت بسحنة مخروعة جَفِلَة.

الحبل الحريري إذن؟ اللسان المتدلي والعينان الجاحظتان، حزّ الحبل المتين على الرقبة، وقد ينسى الضيف أن يذكرني بالقطن فأوسخ نفسي، بل قد أمزق الملاءة وأنا أرافس الموت فأتسبب في إتلاف واحدة من موجودات البيت، الأمر الذي لن تسر له أمي بالتأكيد. لم تعجبني هذه الفكرة فنحيتها. لم يتبق إذن إلا السم. لكني سمعت أن بعض أنواع السم تسبب انتفاخاً وازرقاقاً في الجلد، وحتى تشققاً له! أمر لا ينسجم مع تصوري لموتي. كنت – دائماً – أحلم بأن

* متوحش! متوحش! بالفرنسية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أذهب إلى الموت قوياً، جميلاً ممتلئاً حيوية وحياة.

"لكل طريقة حسناتها وسيئاتها" قاطع الضيف ترددي.

"ألا يمكن تأجيل الحديث في هذا الموضوع؟ ألا يمكن إعطائي فرصة للتفكير؟" تساءلت، مستجمعاً شجاعتي، إذ قد يبدو طلبي وكأنه محاولة للتهرب من القرار أو تأخير تنفيذه.

"بالتأكيد! بالتأكيد!" ردد الضيف. "لكني أردت فقط تنبيهك إلى حق من حقوقك الأساسية. أنه واجبي إزاءك وإزاء شرف المهنة. لكن هذا لا يمنعني من تقديم النصح. هل سمعت بطلقة الرحمة؟"

"طلقة الرحمة؟" تساءلت، فلم يفت الضيف الانتباه إلى ظل ابتسامة تسلل إلى شفتي. "ضلوعك بشرفي. القتل مهنتي" لم استطع منع ابتسامة.

"ألا تصدق؟" تساءل الضيف.

- أصدق. أصدق. لكني تذكرت عنوان فيلم أمريكي: ترنتي. القتل مهنتي.

- كان جميلاً. أليس كذلك؟ شاهدته أنا أيضاً.

"لنعد إلى موضوعنا. لن أمس أي ضلع من أضلاعك. وهكذا فعندما سيعثر على هيكلك العظمي بعد ألف أو ألفين من السنين – هذا إذا قُدّر لأحد أن يفلت ويظل حياً- وأنا أشك في ذلك- فلن يلاحظ أي أمر غير عادي. ثم أن الأمر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لن يتسبب في إراقة الكثير من الدماء. نزف داخلي لا يبين، ونقطة دم أو نقطتين حول الثدي أمر تمكن معالجته ولن يكلف السيدة الكثير من المشقة." التفت إلى أمي مجاملاً "حتى هذا فكرت به. ينبغي أن لا نتسبب في الكثير من التعب لامرأة مسنة."

لم تستطع أمي، رغم ما كان بدأ يشوب علاقتها بالضيف من توتر، إلا أن تحمد له التفاتته. ولعلها أرادت أن تكافأه على حس المجاملة الذي يتحلى به عندما قالت وهي تهم بالنهوض: "احسب أنكما جعتما. سأحضر العشاء."

"شكرا. شكرا" ردد الضيف ممتناً "لكني احضر لكما مفاجأة."

"مفاجأة؟!" هتفنا معاً. عندما قرع جرس الباب، فانفجر بيننا كأنه قنبلة.

هرعت إلى الباب افتحه فاندفع رجلان سامقان مفتولان غليظان وسط المدخل يجرجران صندوقاً خشبياً ثقيلاً.

"حضرتك السيد (ميم)؟" سأل أحدهما وهو يفرد بين يديه ورقة.

"نعم. هل من خدمة؟" وأنا أنظر إلى الصندوق متسائلاً.

"أنه يخصك." رد الآخر مستلاً من خلف أذنه قلماً قصيراً "تُوَقِعُ أم تَبْصِمُ؟"

منشورات «الفـ ـباء AlfYaa»

"أنه يخصني أنا" أوضح الضيف مخاطباً الرجلين من فوق كتفي. "معذرة" متوجهاً إليَّ: "لم يسمح وقتي باصطحاب الصندوق فأعطيتهم عنوانك."

وقّع الإيصال. ودع الرجلين شاكراً. طلب مني منحهما بقشيشاً "يستحقان المكافأة".

وعندما لمح في عيني تساؤلاً ودهشة قال بلهجة من يؤنب طفلاً عجولاً "لا تستعجل. إنها وسائل إيضاح ضرورية. ستتعامل معها قريباً. ربما أسرع مما تتصور."

- أين تقترحين سيدتي وضع الصندوق؟

وهو يتوجه إلى والدتي التي كانت تحدق في الصندوق غير مخفية، هي الأخرى دهشتها وفضولها.

- قد تكون السقيفة هي المكان المناسب.

خطا الضيف إلى المطبخ. تفحص السقيفة.

- لا أشاركك الرأي. سأضطر كل مرة إلى ارتقاء السلّم. ليست هذه فكرتي عن المكان المناسب لوضع وسائل الإيضاح. ينبغي أن تكون في متناول اليد.

"غرفة نوم ابني" اقترحت والدتي ثم مستدركة "أقصد غرفة نومك."

"ولا هذا!" رد الضيف على الفور. "أحب أن أتحرك في غرفتي. ثم لن تتبقى فسحة لممارسة اليوغا. ما رأيك في

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الصالة؟"

"كلا!" أجابت بحزم "أنها مزدحمة – كما ترى – بالأرائك والمقاعد."

تطلّب الأمر الكثير من النقاش والمماحكات والمساومات حتى توصلا أخيراً إلى حل وسط. زاوية في المدخل.

قصدت والدتي المطبخ تهيأ لنا العشاء، بينما كان الضيف منهمكاً في إخراج بعض الأدوات من الصندوق، بكرة مستطيلة انفتحت عن شاشة عرض، بكرات أفلام، اختار من بينها واحدة. جهاز للعرض.

"سيدتي!" وهو يحاول تثبيت الشاشة على الجدار. "سيكون لدينا ما نفعله ريثما يجهز العشاء."

ثبت الشاشة. أزاح طاولة رفع فوقها كرسياً واضعاً فوقهما جهاز العرض. ثبت البكرة.

أطلت والدتي تدعونا للعشاء فدعاها لرؤية عرضه الجميل... ظهرت على الشاشة بقرة سمينة تضع رأسها في مذود وترفعه بين الحين والحين، تلوك بصوت مسموع، بينما يلطخ قائمتيها الخلفيتين براز لا ينقطع.

"أيها السيد!" هتفت والدتي وهي تقفز إلى زر النور تشعله، متوجهة إلى الضيف وهي لا تخفي اشمئزازها "وهذا هو عرضك الجميل؟ أهذا ما يصح تقديمه قبل الأكل؟"

منشورات «الفيء AlfYaa»

- بالضبط يا سيدتي. هذا ما ينبغي عرضه قبل الأكل Ordeuver! أثار المنظر اشمئزازكما هه؟ كنت أغالب رغبة في القيء. هذا هو المقصود بالضبط. إثارة القرف. ربط الأكل بالتبرز.

"يا إلهي! ليس بإمكانك استعمال كلمة أكثر تهذيباً؟" صرخت والدتي غاضبة.

"حسن. من أجلك. فلنسمه إخراج الفضلات، انظري!" وهو يطفئ النور ويعيد تشغيل الجهاز. فيظهر المشهد ذاته " الأكل و..... وإخراج الفضلات! هذا ما نفعله جميعاً! أليسا وجهين لعملة واحدة؟ ألا تقود العملية الأولى، التي يستمتع بها جميع الناس، إلى الثانية، التي تثير قرفهم؟ إن كل ما أفعله بمساعدة العرض هو أنني أوضح ذلك.." وعندما لاحظ أننا ندير رأسينا جانباً قال بصوت آمر كأستاذ يضبط تلميذين يمارسان الغش: "كلا الغش ممنوع! واجها الشاشة!"

سبقتني والدتي إلى الحمام. أفرغنا، الواحد بعد الآخر جوفينا.

"بإمكاننا الآن التوجه إلى العشاء." قال الضيف ململماً أدواته بأناة، معيداً إياها إلى الصندوق. مخرجاً جهاز تسجيل صغير وشريطاً أصّر أن يتأكد من اسمه.

توجهنا إلى المطبخ متثاقلين. كنا قد فقدنا أي رغبة في الأكل. كانت أمي قد وزعت أصنافاً متعددة على أطباق

منشورات «ألف باء AlfYaa»

صغيرة. بيض مسلوق. بيض ونقانق مقليان. اللبنة بالزيت. أصناف من الجبن والمربى. الشوك والسكاكين والملاعق والمناديل.

توزعنا على المائدة إلا الضيف. وقف خلف كرسيه ينقل عينيه بيننا وبين الأطباق.

"مائدة جميلة وحافلة" قال الضيف مخاطباً أمي "اسمحي لي يا سيدتي أن اطري ذوقك.. ألا تلاحظين أنك تغالين في الطقوس؟"

"أية طقوس؟" تساءلت والدتي.

"أعني طقوس المائدة، هذه الصحاف الصغيرة والمناديل والسكاكين والملاعق.. هل هناك حاجة لكل هذا؟ ألا تلاحظان" متوجها إلينا معاً "أن الإنسان يبذل جهداً كبيراً في إحاطة وظائفه البيولوجية – الحيوانية بالطقوس؟ طقوس المائدة: المناديل الملونة والسكاكين الكبيرة والسكاكين الصغيرة والملاعق الكبيرة للغرف والملاعق المتوسطة للكل والملاعق الصغيرة لأطباق الحلوى والآنية المزخرفة والآنية المذهبة. طقوس لإخراج الفضلات" مخاطباً والدتي "لم استعمل تلك الكلمة من أجلك يا سيدتي مع أنها الكلمة الدقيقة المناسبة – مقاعد السيراميك. ورق التواليت الملون. الصابون المعطر. عطور. أنواع العطور. عطور لما بين أصابع القدمين. عطور لما بين الساقين. عطور تحت

منشورات «الف باء AlfYaa»

الإبطين. عطور للصدر. عطور خلف الإذنين. عطور للفم. لماذا يهرب الإنسان من رائحته الحقيقية ويخفيها مثلما يخفي رائحة جيفة؟ طقوس للتناكح..."

"أيها السيد!" صرخت والدتي.

"معذرة. طقوس الحب. الموسيقى الهادئة. الأضواء الخافتة. العطور. كلمات الغزل المنافقة. الملاطفات ثم...." حرك يده..

"كفى!" قاطعته والدتي غاضبة

- حسن يا سيدتي. ألا يعكس ذلك أن الإنسان يقاوم نفوراً داخلياً من ممارسة أحط الوظائف البيولوجية عن طريق ابتداع الطقوس؟

"طقوس! طقوس!" ظل يردد ساخراً.

"وطقوس للموت!" أردت أن أتدخل. الطقوس سلوك حضاري أنها ما يميز الإنسان عن الحيوان.

"الحيوان أكثر صدقاً وأصالة. يندفع لممارسة وظائفه بعفوية. بينما يغطي الإنسان ارتباطه بهذه الوظائف بالحركات المنافقة. قدمان مغروستان في الوحل وجناحان في السماء. ثور بابل. طينٌ بِجُمان. يا للإنسان! كلما أراد التحليق ارتد إلى الأرض بقوة الوظائف البيولوجية. لن يتخلص الإنسان من هذا التمزق إلا بتدمير مصدره. بتدمير الإنسان ذاته. يتميز بغريزة حب البقاء لديه التي تعبر عن

منشورات «الف ياء AlfYaa»

نفسها بممارسة الوظائف البيولوجية. وسيتم ذلك عن طريق حمل الإنسان على كره هذه الوظائف، وفي مقدمتها وظيفة الأكل." عندها توقف الضيف ملتقطاً أنفاسه، "عندها ستحل الغريزة الأكثر جوهرية ! الغريزة الأصل، غريزة تدمير الذات، محل غريزة البقاء!"

استأنف، وقد شردت عيناه عبر النافذة كمن استولت عليه رؤيا، "أنني أحلم بكرة أرضية مستوية قاحلة تلفها، مثل خطوط الطول والعرض، مذاود متوازية متقاطعة يتوزع حولها الناس صفوفاً متقابلة، تحت كل واحد منهم ثقب. يأكلون ويتخلصون من فضلاتهم. الواحد أمام الآخر. عندها سيكتشف الناس أي انحطاط يمارسونه من أجل إرضاء غريزة البقاء الدونية، المدمرة لديهم."

"اسمحي لي يا سيدتي، وقد انتبه إلينا من رؤياه." امتدت يداه تزيحان أدوات المائدة. ومن فوق أحد الرفوف أخذ إناء بلاستيكياً واسعاً. أخذ لدهشتنا يفرغ الصحاف والأطباق في الإناء الواحد بعد الآخر.

"ماذا تفعل أيها السيد؟" صرخت والدتي تهم بمنعه "أنك تفسد المائدة!"

- كلا يا سيدتي. أنني أعيد تنظيمها. أنني أخلصكم من طقوسكم السخيفة.

- لكن.. كيف نأكل؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

"هكذا" وضع رأسه في الإناء، أخرجه وهو يلوك بصوت مسموع، تنحدر من زاويتي فمه، على رقبته وملابسه قطرات الدهن المربى ونثار البيض والجبن والنقانق. دعانا بحركة احتفالية.

- تَغَدَيْتُ على طريقتكم.. تعشوا على طريقتي!

أدار جهاز التسجيل. كان قطيع كامل يمضغ ويخور ويتجشأ.

"مثل البقرة في الفيلم؟ مثل الحيوانات؟" تساءلت والدتي.

- بالضبط! مثل الحيوانات.

صرخت والدتي "لن آكل على هذا النحو. أيها السيد!" توجهت والدتي إلى الضيف وهي تهم بالنهوض "واجبك هو أن تعلمنا كيف نموت لا كيف نعيش؟"

"من قال لك ذلك؟ أنت مخطئة" رد الضيف غاضباً "صحيح أن واجبي هو أن أعلمكم كيف تموتون، لكن ذلك يتطلب قبل كل شيء أن أعلمكم كيف تعيشون على طريقتنا."

غادرت والدتي المائدة حانقة إلى الصالة.

حاولت، مجاملاً الضيف، أن أشاركه الطعام.

إلا أن راسي كانت تصطدم، في كل مرة أضعها في الإناء، برأس الضيف فارتد متوجعاً بينما يضحك الضيف مثل طفل شقي استهوته لعبة مسلية، وأنا لا أملك إلا أن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أشاركه. أدركت عبث المحاولة، غادرت إلى الصالة.

أدركنا حتى هناك المضغ والتمطق والتلمظ والتجشؤ، يختلط فيه صوت الضيف بصوت المسجل.

"مثل الحيوانات! مثل الحيوانات!" ظلت والدتي تردد وأنا أرجوها أن تخفض صوتها كي لا تفسد على الضيف شهيته.

جلسنا متقابلين مطرقين.

كانت قد مضت عدة أيام منذ حل الضيف بيننا. نظرت إلى والدتي: وجه متهدل يعلوه الشحوب وعينان غائرتان، نظرت إليَّ. نظرت طويلاً ثم أشاحت.

كان الضيف قد ركن إلى فراشه. يتسلل إلينا شخيره عبر الرواق مثل منشار آلي يحز الأعصاب.

لم نكن نجرؤ على الاقتراب من المائدة. كان مجرد تصور الأكل يبعث فينا الرغبة في القيء.

"أخيرا؟" قالت والدتي تواجهني بنفاذ صبر.

"كما ترين! لست أحسن حالاً" أجبت برنة منكسرة يثقلها الحساس بالذنب.

- يا ولدي.. يا ولدي، حتى متى تظل تتأرجح على حافة الموت؟ حتى متى تعذب نفسك وتعذبني معك؟ ألم تتعب؟ أما آن لهذه اللعبة أن تتوقف؟ لِمَ لا تفاتح صاحبك؟

- من قال لك أني لم أفاتحه؟ كان يؤكد بلهجة متعالية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

متكبرة: لا تتدخل فيما لا يعنيك!

- لقد جاوز ضيفك كل حد.

أطرقتُ. اجتاحني شعور غامر بالهوان. أنه قراري. لماذا ينبغي أن تعاني هي أيضاً؟ لكن من كان يحسب أن الأمر سيتخذ هذا المنحى الغريب؟ أقصى ما كان يمكن تصوره طلقة بين العينين أو في الصدر أو في الخاصرة.

"لم يعد باستطاعتي دخول الحمام" قالت والدتي وهي تكاد تبكي.

أعلم، لم تكن بحاجة لأن تشرح. كان مجرد دخول الحمّام، بعد قيامه بتثبيت المرايا أمام المقاعد، يدفعني إلى الخروج مهرولاً.

- هل سيطول الأمر؟ اسأله!

- حتى لو طال. فات الأوان الآن، لم يعد ثمة فرصة للتراجع. صبرنا كثيراً. فلننتظر قليلاً.

"حتى يدمرنا؟" تساءلت "تتذكر كلمات صديقك؟ ''سيدمركم! سيخرب نفوسكم'' تتذكر؟"

- أتذكر لكن ما الفائدة؟

- يا بني.. يا بني، لم يعد في طاقتي الاصطبار. بدأت أكره نفسي. بدأت أكرهك، أكره كل شيء. كل لحظة في حياتي. أنا لا أتحدث عن الحاضر ولا عن المستقبل فقد

منشورات «ألف باء AlfYaa»

خلفتهما ورائي. أتحدث عن الماضي، آخر ما تبقى لي في مواجهة الموت. أكره كل لحظة فيه، الصبا والفتوة. ارتعاشات القلب والجسد. العرس والولادة. الهموم الصغيرة، والمسرات الصغيرة.

"ماذا يهم؟" أجبت "سيتساوى كل شيء في النهاية. الموت والولادة."

- ينبغي أن تحب. أن تنجب وترضع وأن تضم وتشم وأن ترى حياتك تمتد بعدك لتعرف ما هو مهم.

- فات الأوان الآن.

- كلا! لعله لم يفت. أمّا أن ينتهي كل شيء وأمّا..

- وأمّا؟!

اخترقنا صوته.

التفتنا وقد استولى علينا الرعب. كان الضيف يسد باب الصالة. نقل بيننا عينين مستفزتين وقحتين واجتاحت وجهه ابتسامة متحدية. فتح فمه للحظة بدت دهراً. أطبقه أخيراً وانسحب إلى غرفته. لم نكن نكف عن التلفت إلى الباب. ماتت الكلمات على شفاهنا. انسحبت أمي أخيراً، مجرجرة نفسها إلى غرفتها. تهالكت على الأريكة في طرف الصالة.

".... وأما"

بدا لي ما ينبغي أن أفعله جلياً أكثر من أي وقت. لم يعد

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأمر يطاق. اليوغا. تمارين الإرادة. وجبات الطعام. نوبات القيء. سم الفضلات الذي يزحف على روحينا. سأنسل إلى غرفتي. غرفته. افتح حقيبة الأدوات. أترك للحظة أن تختار. انسحب إلى الحمام. أطبق الباب. ثم.. ينتهي كل شيء. فقط عندما ينام.

- قم!

فتحت عيني مرتعباً. كانت تقف عند رأسي

- قم!

بدت كما كنت أراها في كوابيس الطفولة عندما كانت تغضب منّي لشقاوتي. شعر محنى طويل منكوش. عينان ناريتان. نابان طويلتان ومخالب مدببة. ستنحني عليَّ وتلتهمني.

انكمشت. سحبت فوق رأسي الغطاء.

"قم!" صرخت.

- قم يا ابن العاهرة. سأكون عاهرة حقاً إذا تركتك تستسلم له وتركته يأخذك مني.. **قم!**

أنشبت أظافرها في كتفي. **"ستلتهمني!"** صرخت. ظل صوتي حبيساً. أنهضتني. وضعت فمها في إذني. فحّت.

كان فحيحها يرج الصمت، يرج البيت. سيستيقظ وتملأ قامته الباب**!**

"سألقي بثقلي على رجليه فيما تطبق كفاك على رقبته."

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

همست بصوت آمر.

- كلا! أفضل أن أكون مقتولاً على أن أكون قاتلاً. لا أريد.

تراجعت إلى الأريكة.

سحبتني من يدي. تماماً كما كانت تفعل عندما كنت صغيراً. توقظني منتصف الليل وتقودني إلى الحمّام وأنا نصف نائم.

- أنا اجلس على قدميه وأنت تخنقينه.. لا استطيع القتل.

"كلا!" وهي تدفعني أمامها. "أنت وبكفيك.. وإلا فإنه سيعود."

وعندما ترددت أمام الباب فتحته بضربة واحدة. قذفتني وسط الغرفة. سينهض لملاقاتنا! أردت الهرب إلا أنها سدّت بجسمها الباب. كان مستلقياً على ظهره. عيناه مفتوحتان على سعتهما، تنفرج شفتاه عن ابتسامته الهازئة. انحنيت فوقه. كانت عيناه تزدادان اتساعاً. تململ. سينهض! سينقض! سيغرس أصابعه في عنقي.

انقضضت على صدره. امتدت كفاي تطبقان على عنقه، أهزه وأرجه وأنا اصرخ وأبكي وأضحك، ضغطت ضغطت، حتى همد أخيراً.

نهضت عنه. جذبتني أمي إلى الباب. ونحن نَعْبُرُه سمعنا

منشورات «الفيء AlfYaa»

طقطقة وقهقهة من جهة السرير. تلفتنا معاً ننتفض ذعراً. كان السرير فارغاً تماماً.

قادتني أمي إلى الصالة. كنت أرتجف وانتفض حمى وذعراً ونشيجاً. تربعت أمي على الأريكة، جذبتني إلى حجرها. ضمتني إلى صدرها. كانت تربت على شعري، تبكي وتضحك. مرددة: "يا صغيري.. أيها الأحمق الصغير.. هل كنت تحسب أني سأتركه يأخذك مني؟ أيها الأحمق.. أيها الأحمق الصغير."

انفتح باب الصالة التفّت صوبه مرتعباً. ستسد قامته الباب! سيدخل! سنقض مقهقهاً: "عدت!"

قامت أمي إلى الباب تغلقه. عادت تهدهدني. تربت رأسي وكتفي.

"أيها الأحمق.. يا صغيري.. يا وليدي يا ولي..." حتى نمت.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

5- ابن الإنسان

انحدرتُ مع العتمة إلى الجرف الصخري. ربطتُ قدمي إلى حجر ثقيل. قذفت نفسي وسط اللجة. قلت: سأظل أصارعه حتى يصرعني فأتوحد به، هو البحر الجميل، هو الموت الجميل.

كنتُ أخبط الموج البارد بذراعين هما كل ما بقي لدي من إرادة الحياة. وحين تعبت، وسحبني الحجر الثقيل إلى الأعماق، ارتفعت بقوة موجة ماردة قذفتني عند عتبة بوابة هائلة.

كان ثمة: العتمة وحدها. الصمت وحده. البوابة المغلقة وحدها. وأنا وحدي. كنت ارتجف بللاً وبرداً وخوفاً ووحدة وحمى.

تسلل إليَّ عبر البوابة هدير الأرغن، موجاً هادئاً

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مسترسلاً وموجاً معربداً صخّابا، موجة إثر موجة.. موجة إثر موجة، حتى احتواني فبكيت.

ضربت الباب بقبضتين واهنتين. كنت أصرح: "افتح! افتح يا ابن الله! لا تتركني وحدي مرمياً في العتمة والوحدة والبرد."

تك صوت معدني خلفي. التفتُّ. كان شرطي يزيح ترباس بندقيته مثنياً ركبته. يَصَوّب بهدوء.. "الرأس أم القلب؟" سيتناثر مخي! ستنبثق نافورة دم من صدري! تجمدت. ظهري إلى البوابة. دفعت الباب. غرست قدمي في الأرض دفعت بكتفي. دفعت وأنا أعول صارخاً، افتح يا ابن الله سيقتلوني يا ابن الله! افتح! افتح!

صرَّ الباب العتيق، فجأة، وانفتح:

انقذفت وسط قاعة فسيحة، تئز لصق أذني الرصاصة. كنت وحيداً تحت قبة مرتفعة، يتحدر من جنباتها هدير الأرغن. تلفتُّ. كان هناك. المصلوب. على جبينه الشوك. وفي يديه وقدميه المضرجتين المسامير. اندفعت إلى المذبح. سقطت على ركبتي. خبطته بقبضتي وأنا اصرخ:

"انزل! انزل!

امنحني صليبك يا ابن الرب

انزل! فعذابي فاق الصلب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

انزل! امنحني صليبك!

انحدرت على خديه دمعتان

- انزل!" هتفت مستعطفاً "أوَ لم تتعب؟"

"بلى" تداخل صوته بتموجات الأرغن "لكني في كل مرة كنت أهم بالنزول، كانوا يسمرونني عليه من جديد."

- وهل خفت وهم يقتادونك إليه؟

- كنت ارتجف ذعراً وهلعاً.

- هل تألمت؟ هل بكيت؟ هل ساورك الشك؟

- نعم. صرخت به: أبتي! أبتي! لِمَ تركتني؟ لم يجب. تركني وحدي أرقى الجلجلة والصليب.

"تعبتُ يا ابن الله" قلت له وأنا أنشج "خذني جنبك. أنا مخذول ووحيد."

"مثلي" رد ابن الله "ومع ذلك فأنني أواصل."

"أكلما تشبثت بصخرة تَفَتّتْ بين أصابعي مثل كومة ملح؟ أكلما تعلقت عيناي بنجمة خبت وانطفأت مثل ضوء خُلّب؟ الزيف والكذب والفظاظة في كل شيء، في كل مكان، لا شيء حقيقي.. ليس ثمة فرح.. باطل وقبض ريح! باطل وقبض ريح! وتقترح عليَّ، رغم ذلك، أن أواصل! أي عدل في هذا؟" وأنا أهز قبضتي في وجهه.

"اسمع!" صرخ ابن الله "اختارني، من بين جميع أبنائه،

منشورات «الف باء AlfYaa»

أب جاهل غشوم، لأكفر عن خطاياه وخطاياهم، لأفتديه وأفتديهم." انتفض على الصليب. ارتجت الخشبة. نفر الدم من باطن كفيه وقدميه وخاصرتيه كأنه صلب لتوه "عشرون قرناً وأنا أواصل الحياة – أواصل الموت، مسمراً على هذه الخشبة، كلما حاولت منها فكاكاً، ازددت نزفاً وتمزقاً والتصاقاً. قل لي:" جأر غاضباً "قل لي: أي عدل في هذا؟"

شقت صدره تنهيدة كادت تنهد لها القبة وتتداعى الجدران. استطرد وقد استعاد هدوءه: "يا لشقاء روحك! تطلعت مثلي إلى السماء في كل شيء، داخلك وخارجك، فلا أنت بلغتها، ولا استعدت الأرض. وستظل، مثلي، مصلوباً بينهما، بين الأرض والسماء، حتى تغرس قدميك في الأرض ثانية. أما أنا.." توقف وقد شاع في صوته وقسماته الاستسلام "أما أنا، فلم يتبق لي إلا هذا" ملتفتاً إلى الخشبة.

- أنا خاطئ وملعون! أنا خاطئ وملعون يا ابن الله! "كنت أرج المذبح وأنا ارتجف.

"هل كذبت؟" سأل ابن الله بعد أن أطال صمته.

"نعم يا سيدي. نعم." وأنا أنشج.

- هل سرقت؟

- نعم يا سيد. نعم.

- هل تشهيت امرأة جارك؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- نعم يا سيدي. نعم.

- هل زنيت؟

"نعم يا سيدي. نعم." بلوعة.

- هل قتلت؟

لم أجب.

كرر وكأنه يصرخ "هل قتلت؟".

تذكرت القصر العتيق. قصر الموت. الأب – المحارب القديم – مكوماً، مثخناً، مضرجاً. أبناؤه المتحلقون حوله مدهوشين مذعورين. كيف حدث هذا؟ من كان يتصور؟ بعضهم، قلة، ماتوا دونه. بعضهم خذله. أنكره قبل صياح الديك. بعضهم خانه. باعه بأقل من ثلاثين من الفضة. بعضهم شارك في تقطيعه والتهامه. ساتريكون*. لكن: من قتل مَنْ؟

"أجل" تساءل ابن الله "من قتل مَنْ؟"

تذكرت الضيف. لكن هل قتلته حقاً؟ هل كان موجوداً؟

"موجود وغير موجود، قتلته ولم تقتله." أجاب ابن الله "يهجع حيناً، ويستيقظ حيناً. ستظلان تصطرعان. تغالبه

* حكاية ساخرة، تتخللها أبيات شعرية، موجودة في أجزاء في القرن الأول الميلادي، كتبها بترونيوس أربيتر، الذي كان في بعض الأحيان من المقربين للإمبراطور نيرون، والذي كان في نهاية المطاف أحد ضحاياه الكثيرين.

منشورات «الف باء AlfYaa»

ويغالبك، حتى تتحدا في النهاية، فتتلاشيا معاً."

"لكن هذا كثير على إنسان واحد.. كثير عليَّ يا ابن الله" قلت في رنة تجمع بين الأسى والاحتجاج.

"أعرف" رج ابن الله "لكن أليس هذا" مشيراً برأسه المكلل بالشوك إلى جسده المصلوب "أليس هذا كثيراً عليَّ؟"

لم أنبس فتواصل بيننا الصمت.

"قم!" صرخ ابن الله.

حاولت. لم استطع.

"قم!" كرر بصوت آمر.

وضع كفيه الداميتين تحت إبطي. كان قد غادر الصليب. أنهضني. وعندما أصبحت بمواجهته، مسح جبيني بكفه، ثم قبّله.

"قم! إني أعمدك:

إنساناً وابن إنسان

بالحب ستولد ثانية

وسيكون لك بنين وبنات من صلبك

سترث، وسيرثون، الأرض

سترث الأرض!

قم!"

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كان يربت على رأسي. ظل يردد: "يا ابن الإنسان.. يا ابن الإنسان! يا أخي.." حتى اقتحم البحر القاعة... واستردني.

التفتُّ. كان يرقى الصليب متمهلاً. صرخت: "لا تتركني في العتمة واللجة وحدي!" إلا أن الموج غيّبه.

كنت وسط الموج العاصف المضطرب مرة أخرى.. وكان ثمة ضوء بعيد خافت رجراج، يتقاذفه الموج، يخفيه ويبديه.. وكان ثمة وسط العتمة، بقية صارية ومزق شراع.. رأيت أذرعاً تخبط اللجة، ترتفع وتهوي.. كانت قدماي، وقد تحررتا من الحجر الثقيل، تتحركان بيسر.. دفعت الموج بصدري، رفعت ذراعي. ضربت الموج، أصارع البحر من جديد..

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إبراهيم الحريري

(1937 - 2023) صحفي، كاتب، روائي وسياسي عراقي.

ولد **إبراهيم الحريري** عام 1937 في **بيروت**، لبنان، لأب عراقي وأم لبنانية. انتقل مع عائلته إلى **العراق** عام 1950 . بعد انقلاب شباط واعتقاله وتعذيبه في **"سجن النهاية"** في العام 1963 هاجر إلى **الكويت**، وعمل فيها ، ثم غادرها لاحقا إلى **لبنان** 1968، وعاد إلى **العراق** في أوائل السبعينيات، وغادره في 1979 إلى **القاهرة** ـ مصر، ثم إلى **دمشق** ـ سوريا 1984، ثم إلى **القاهرة** مرة ثانية 1987، ثم إلى **كندا**

منشورات «ألف باء AlfYaa»

حيث توفي في 25 مارس 2023 في مدينة **هاملتون**، عن عمر ناهز 86 عاماً. تزوج وأنجب ابنه **فادي**.

لم يكمل إبراهيم الحريري تعليمه واكتفى بالشهادة الابتدائية، بسبب نشاطه السياسي وإبعاده وهو في أول شبابه إلى منطقة " **بدرة**" لكنه علم نفسه وامتلك ثقافة موسوعية شاملة ومتميزة.

المسيرة المهنية والأدبية

انضم **إبراهيم الحريري** إلى جريدة "**اتحاد الشعب**" (جريدة **الحزب الشيوعي العراقي**) عام 1959 كملخص للعرائض والمطالب الشعبية، ثم تدرج ليصبح محرراً في الصفحة العمالية، ثم مسؤولاً عنها، وعضواً في هيئة التحرير وكاتب عمود باسم "**صديق حمدان**" (شخصية مستوحاة من عامل نسيج طريف اسمه "**غيدان**" تعرف عليه في ورشة **بيت عطرة للنسيج اليدوي**)، وفي **الكويت** نشر في صحافتها أولى قصصه وأعماله الأدبية في مجلة "**صوت الخليج**" ومجلة "**الطليعة**" ، وفي لبنان كتب في مجلة "**الهدف**" الفلسطينية وجريدة "**النداء** " اللبنانية، كتب باسم "محسوبكم **زكور** شوفير عالخط" وفي العراق في السبعينيات عمل في جريدة "**طريق الشعب**" حيث كتب عموداً صحفياً أسبوعياً بعنوان "**من التنور**"، ونشر أعمدة باسم "**زكور**" أيضا. وكتب أيضا مقالات ساخرة باسم "**نفر**" وفيها يحكي حكايات شخصية "**أبو عمشة**" ("سكن السايق أي مساعد السائق).

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الإنتاج الأدبي الروايات والنصوص:

- **"الجثة"** (رواية قصيرة)
- **"الاغتيال"** (رواية قصيرة، كتبها خلال الأعوام 1970 - 1987).
- **"الانقلاب"** (كوميديا ساخرة سوداء عن تجربة السجن في قصر النهاية)
- **"يارا"** (رواية قصيرة)
- **"العضو"** (رواية قصيرة)
- **"القيامة"** (نص تجريبي)
- **"الخروج"** (مسرحية)
- **"الصبي الشيوعي - سيرة ذاتية"** (صدر بمناسبة بلوغه 80 عاماً)

المجموعات القصصية:

- **"النبگة"** (شجرة السدر)
- **"حكايات حمدان"**
- **"سيدتي الجميلة"**
- **"ارتكابات"** (على حافة الشعر)

كتابات أخرى:

- **"الشجرة"** (قصة للأطفال)
- **"جدل الداخل والخارج"**
- **"أبو سعيد** (عبد الجبار وهبة)"
- **"فتى السبعين"**
- كما نشر **مقالات وحوارات** عديدة في الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية.

منشورات «ألف باء AlfYaa»